صُورة البقرة

عنوان الكتاب: صورة البقرة

الموضوع: رواية

التأليف: شريف كمال

مراجعة لغوية: كريم أبو النور

إخراج فني: عمرو سالم سواح

غلاف: بلال محمد

رقم الإيداع: 2020/ 15788

الترقيم الدولي: 978-977-6639-88-1

الناشر: دار تويتة للنشر والتوزيع

www.facebook.com/Tweetforpublish

tweetpublishing2017@gmail.com

٧ش محمد أبوالعطا- محطة العريش-فيصل- الجيزة

رئيس مجلس الإدارة: م/ أحمد عبد العزيز

المدير العام: أ/ رشا العمري

01017799799

01225762066

تويتة Tweeta للنشر و التوزيع

#غرّد_للعالم

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة

صورة البقرة

رواية

شَرِيف كَمَال

(١)

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾

[البقرة: ٣٠]

في لحظة حاسمة، مُكوم جسدها على الأرض، لا تعرف لها اسمًا، أو شكلًا، تجْثم فوق رقبتها رُكْبَة رجل قوي البنية، يرتدي "فانلة" بيضاء متسخة ومغرقة ببقع من الدماء، يضع سكينًا حادًا على رقبتها بعنف؛ فتَنْشع الرقبة بضع نقاط من الدماء، يسألها بحدة:

- سَلَّمتِ؟!

تعودت هي الصمت منذ أن وُلدت، تتحدث فقط عيناها بنظرة ضعف، خوف، على الرغم من عضلات جسدها القوي المختلف عن الإناث.

يمسك بأقدامها ثلاثة رجال آخرين حتى صارت أقل حركة عليها صعبة جدًا، المشهد للعَيان... حناجر الجموع تصرخ بفرحة، وعيونهم تمتليء ابتسامات وقلقًا.

تتساقط المياه من اللحية الطويلة للرجل ذا "الفانلة" البيضاء "الدموية"، وتنزلق السكين على رقبتها بسهولة؛ لتصنع صفيرًا خفيفًا، تتناثر دماؤها على عين الرجل ووجهه، فيمسحها بابتسامة ساخرة.

يهتز رأسها المذبوح بقوة، ومعه تهتز ذاكرتها، مشاعرها بالخوف، بالقوة، بالنشوة والأنوثة... أمها ذات النظرة الناعمة، بيتها المتواضع الذي جمعها بأشقائها، الحبيب الأول ورعشته الجنسية تهزها بقوة... طعامها الطازج الذي تعودته؛ لن يكون بعد اليوم.

تتذكر آخر أيامها... أيام عدة، حبيسة في حجرة ضيقة سوداء بجسدها الكبير، وحدها فقط في ظلام الكون، كم بقيت هناك من الوقت حتى نسيت كل شيء! فقط... تأكل وتشرب ولا شيء آخر، نسيت حتى نفسها. لم يؤنس وحدتها إلا طفل"خائف" يحنو عليها... فقط ساعات وسط أيام مريرة.

ينفجر الدم من رقبتها، يُسّمي كل الحاضرين، ينظرون بحيرة، بتقوى، بخوف.... ". تقف على أقدامها مرة أخرى بقوة شديدة.

يخاف الجميع فيعودون إلى الوراء، إلا الرجال الأربعة الأقوياء الذين يتشبثون بالأنثى القوية الرقيقة... وتستبيح أياديهم جسدها كاملًا.

يحاولون إسقاطها مرة أخرى...

لحظة السكون.. سكون جسد تخلى عن نبضه غَصبا.. ألمها الدائم في معدتها يتوحش؛ فَيَدُك خلايا المعدة، الغيمة الرمادية الدائمة أمام عينها اليمنى تزداد بقوة.

نور السماء الأصفر يخفت في عينيها، يخفت أكثر وأكثر. وتأخذ مكانه حبيبات سوداء.. تزداد حتى تحتل المشهد كاملًا.

***

يتقدم طفل صغير بين الجموع... طفل أسمر، مجعد الشعر يبدو عمره أقل من العاشرة... يخترق الجموع المتكدسة في خط مستقيم، يمر بينها وتحتها، يقف على بعد متر واحد فقط منها.

يدور حول نفسه بهدوء متطلعًا بسخرية إلى الجموع التي يختلط هدؤها بقلقها، يمط شفتيه بلا مبالاة... يقترب خطوة أخرى فيغوص نعله في الدماء. يهز قدمه بعنف؛ ليَنْثُر ماتعلق بها من لزوجة الدماء.

من جيبه يخرج هاتفًا صغيرًا، يدخل يده داخل رقبتها. ينام على الأرض؛ ليستقر رأسه لصيقًا تمامًا بالرأس المنفصل، يضع يده المغرقة بالدماء أمامه؛ لتشير إلى علامة النصر، ثم يلتقط صورة لهما باليد الأخرى.. "سيلفي الرأس المذبوح".

يشعر بخده الذي كان يحتضن خد الذبيحة منذ لحظات ساخنًا لزجًا. يمسحه بكتفه اليمنى، فيجد بقايا الدماء قد انتقلت إلى كتفه العارية، صار جسده ممتزجًا بالدماء مثل محارب في معركة بالسيوف...

تَعَجَّب الجميع من جرأة الطفل، وتعجبوا من هذه الذبيحة أكثر. منذ بداية اليوم، هناك لمعة غريبة في عينيها، وصامتة صمتًا تامًا غريبًا على مثيلاتها.

فجأة يصيح رجل أربعيني أسمر، تنبت ذرات الشعر الرمادية على ذقنه، يصرخ في الطفل:

- سيبها يا "خايف" دلوقت واطلع فوق ومتنزلش تاني.

نظر له الطفل نظرة انتصار، ثم مضى ناحية أحد أبواب العمائر.

من تسع سنوات، قال الرجل الأربعيني لامرأته "بهية" قبل ولادة الطفل بثلاثة أشهر:

- هسميه "خايف".

فتحت المرأة فمها دقيقتين، لعله يسحب "أوكسجين" الغرفة كله ثم صرخت:

- "خايف" ايه يا "كامل"! انت عقلك طار؟

تصميمه على الاسم كان غريبًا، تصميم قادر على أن يدمر الحياة، أو يعيد بناءها...

- هسميه "خايف" ومش عايز كلام.

- انت عايز البكري يطلع هزؤ؟!.. العيل له نصيب من اسمه...

- اللي يخاف ميبقاش هزؤ... اسكتي يا "ولية".

لم تعرف "الولية" ما تقول. تمنت لو تقضم قطعة من قلبه بأسنان "الولية". بتحدٍ نظرت له، وضعت يدها اليمنى على خصرها ورفعت"جلابيتها" الحمراء قليلًا؛ فَبرَزت انحناءاتها السميكة، كأنها راقصة درجة سابعة... تستعد لرقصتها المعتادة، قالت بثقة:

- اومال انت ليه خايف وهزؤ؟

أخذ زوجها "كامل" نفسًا عميقًا ليستقي كمية وفيرة من الهواء، قال لها يتصنع "الحَمْشَنَة":

- الموضوع خلص، أنا قررت خلاص.

استمر الصراع بينهما شهرين كاملين، منافسة شرسة بين "الخائف" و"غير الخائف".

- عليا الطلاق لو متسماش خايف لَيِحرَم عليا لمْسِك.

الحقيقة في تلك اللحظة، لم يكن يعنيها لمساته لجسدها التي يترفع عنها بها؛ والتي تتقزز منها غالب الأحيان، لكنها لسبب ما غير معلوم لها أو لي، صمتت تمامًا، لذلك لم يكن ابنها المستقبلي فقط هو الخائف، سميت نفسها "خائفة" هي أيضًا، في تلك اللحظة... انفجرت فجأة:

- سميه أي زفت على دماغَك.. منك لله يا "كامل" ياللي معرفش اسم امك.

هذه الجملة دقيقة تمامًا؛ فبهية لم تكن تعرف اسم أمه وقتها، وأغرب من ذلك أنها حتى الآن لا تعرف اسم أمه، على الرغم من زواج عشر سنوات. حالة من الغموض تحيط بزوجها "كامل" منذ أن عرفته.

***

يقف الطفل "خائف" لدى باب إحدى العمائر مغرقًا بالدماء، يصرخ الرجل ذو الفانلة البيضاء الدموية مبتهجًا:

- كل سنة ونت طيب يا حاج، دي "بقرة" مباركة.. لحمها احمر دم. أحلى من العسل.

يدخل خائف عبر باب العمارة، يطير فوق السلم متجهًا إلى الطابق الخامس، في شقة ذات حجرتين، وصالة صغيرة. يدق الباب بكلتا يديه كقارع طبول...

تجاه الباب تمصمص أمه "بهية" شفتيها الثمينتين، تكره هي أول أيام عيد الأضحى عديم اللحمة والرحمة، تهمس لنفهسا بصوت مسموع:

- يا حسرة العيد... عايزنا نعيد عاللحمة الشحاتة... كانت ليلة ماطلعلهاش شمس.

بمجرد أن رأت "خائف" أمام الباب، صرخت بأعلى صوت:

- "يالهويـــــي"

مدت "بهية" في الكلمة حتى تَهَيأ لمن في الشارع أنها لن تنتهي من هذه الـ"يالهــوي"..

نَزلت الـ"يالهـوي" السُلَّم مسرعة لتداعب أذن زوجها "كامل".. ضحكته هو الآخر سمعها كل من في الشارع.. يتخيل بهية ترى ابنها مغرقًا بالدماء وتصرخ... لا يتوقف ضحكه. ينتظر منها "يالهويـي" أخرى، يمد آذانه جميعها منتظرًا. لم تخيب بهية ظنه.

- "يا خرابـــــى"

طويلة كأختها الكبرى تنطلق من فمها.

يتواصل ضحكه وضحك من في الشارع بعد أن فهموا سبب الـ"يالهويهات"... فوقهم بخمسة أدوار، نزلت بهية على ركبتيها، تتحسس"خائف" بكلتا يديها. تمسح عنه طبقات الدماء بحثًا عن الجرح المَهُول منبع كل هذه الدماء.

- مالك يبني.. مين عورك كدة؟

ينظر "خائف" إلى وجهها الخائف ودموعها التي تتساقط، يضحك بسعادة وهو يجري متجهًا إلى الداخل.

- أنا كويس يا "بهية" مفيش حاجة.

تَعَوَّد الطفل أن ينادي أمه باسمها، اندلعت داخل بهية معركة بين الغيظ والسعادة، حسمها الغيظ في ثانية فأحست بنار في صدرها:

- اومال ايه الدم ده يابن الكلب؟.

- ده دم البقرة يا ماما.. أوريكي الصورة اللي خدتها معاها؟

تلك البقرة يعرفها خائف منذ أيام، يعرف أيضا اسمها، أو بشكل أكثر دقة قام هو بتسميتها.. سماها "دارتي".. يقصد بها الكلمة الانجلزية "ديرتي" "dirty" لما وجده من بقع طينية تتكاثر على جسدها.

بجسدها العريض انطلقت الأم في إثر ابنها الذي ركض هو الآخر، يتخبطان معًا في الحوائط المتقشرة للبيت القديم. لكن سرعان ما كانت النهاية المحتومة، عَلْقَة مصري من النوع الساخن، تلاها جسد تَعَرَّى في الحمام يستقبل مياهًا يكرهها لتزيل عنه الدماء.

فهل أزيلت جميعها أم بقى بعض منها مُعَلَقًا بروح "خائف"؟!

(٢)

﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾

[البقرة: ٢٨]

وُلِد "خائف" بيُسر كأنه لم يكن خائفًا من الدنيا... يومها أحست أمه "بهية" بكومة من المياه الخفيفة تتساقط بين فخذيها.

شعرت به مستعدًا للانطلاق في "حواري" الحياة بمجرد أن تدفعه دفعات عدة. همسًا قالت بابتسامة متحيرة:

- اومال ليه بيقولوا البِكرية صعبة؟

تربى "خائف" بشكل عادي، مثل أقرانه في المنطقة... ربما ما اختلف فيه فقط؛ هو عقله الساذج البسيط...

أسئلة الأطفال التي يخشاها الآباء والأمهات بمجرد أن تنطقها الألْسُن:

"ماما هو ربنا فين"

"هو انا جيت إزاي؟"

"هو ربنا راجل ولا ست؟"

"هو جدو لما مات راح فين؟"

هذه الأسئلة المعضلة للناس جميعًا لم يسألها "خائف" لأمه وأبيه، بل الحقيقة أنها لم تخطر بعقله من الأصل!.

الأسئلة التي يسألها الفلاسفة فنصفق لهم، يسألها الأطفال فنزجرهم... هل يولد الإنسان فيلسوفًا؟

كل أطفال العالم فلاسفة إلا "خائف".

في اليوم الأول من عيد الأضحى، بعد أخذ صورة "سيلفي" مع الأضحية، واستحمامه من الدماء، انطلق "خائف" ناحية بيت الحاجة "يافتة" للتعييد عليها. "يافتة" هي امرأة عجوز يهودية يشفق عليها أهل "الحِتّة". تجاوزت الثمانين من عمرها، تعيش

وحدها بعد موت ولديها وزوجها، يعدّها خائف صديقته ويحب "حكاويها" التي لا تنتهي... عند عودة خائف نظر له الأب بقسوة، قال بحسم:

- اطلع فوق وقول لامك هشتري اتنين كيلو لحمة واطلعلكم.

ارتسمت سعادة عجيبة على وجه خائف، جَرى إلى أمه:

- بابا هيشتريلنا اتنين كيلو لحمة

- اتنين كيلو مرة واحدة؟!

تعجبت الأم من ذلك الرجل الذي هو زوجها و لا تعرف أين يخبيء أمواله!!

بعدها بساعات قليلة... تمدد "خائف" على سريره، يتجشأ بعد وجبة لحم و"فتّة" دسمة. ناظرًا إلى السقف بوجه إنسان يدخل من بوابات الجنّة، يتحرك كرشه الصغير صعودًا وهبوطًا من كثرة ما أكل.

ليلًا، ينقلب اليوم الذي قضاه في جَنَّة فتة اللحم واللعب و"يافتة"، إلى ليلة مملة... من الغرفة الأخرى يسمع صوت أمه يمتزج بأذان الفجر:

- ابعد عني يا راجل ... لا بقيت بطيقك ولا بطيقه.

يتساءل خائف "ما الذي لا تطيقه أمه بجانب ابيه؟" هل تقصده هو؟ يسمع أباه يرد عليها بصوت تعمّد أن يكون أجش، جعل خائف يضحك بصوت عالْ...

- ليه يا "بهبوهة" دنا بحبك.. وهو بيحبك.

- سبني اقوم بريحتك دي ... أما اروح اعمل حاجة تنفعني.

يمط خائف شفتيه بغير اهتمام ثم يفتح الهاتف المحمول، يشاهد صورته مع رأس البقرة المذبوح.

يتذكر صورته الأولى معها عندما كانت حية يرزقها الإله. عندما دخل إلى المحل القديم المظلم الذي مكثت فيه البقرة أيامًا قبل ذبحها.

فقط هو والبقرة في ظلام أشبه بظلام النعش... أنار كشاف الهاتف في اتجاه وجهها... عيناها كانتا غريبتين ودهِشتين... بقرة صامتة تمامًا بشكل غريب على الأبقار... على رقبتها وظهرها ظل يداعبها ساعة ويلاعبها، تركت طعامها الذي تنشغل به لتأتنس "بخائف"... ساعة سعيدة مرت عليها حتى وضع خائف الهاتف أمامهما ليلتقط "سيلفي" معها..

فوق سريره، ينظر خائف الآن لصورته مع الرأس المذبوح، يشعر بتقزز، بحركة بسيطة من إصبعه على شاشة الهاتف ينتقل إلى الصورة التي قبلها "سيلفي الرأس غير المذبوح".

يُصعق، ينتفض... يشعر بخوف رهيب وغضب. بل يشعر بحياة... الحياة كلها أمامه في تلك العين الحية، كأنه يلامسها بيده.

ينتقل سريعًا لصورة الرأس المذبوح... عين زجاجية "بنية" تنير ظلام الغرفة... ولكن نور باهت كالظلام... كالموت.

لأول مرة في حياته يشعر بالخوف، ما الذي يحدث؟ يتنقل بين الصورتين بعين دهِشة مجنونة... هي نفس العين في الصورتين؛ كأنها في الصورة الأولى كانت ممتلئة ثم سَكَبت ما بها.

تُرى ما الذي سكبته؟ يتشنج، ويبكي كعذراء ترملت يوم زفافها.

(٣)

﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ﴾

[البقرة: ١٥٥]

لم ينم خائف ليلته إلا ساعتين، رأسه أحسه مغلقًا بمفتاح عن كل ما حوله... بجانبه تجلس بهية بجسدها العريض... فجأة، تسأله:

- عامل ايه يا ضنايا؟

يرد عليها "خائف" بهدوء شديد، هدوء يسبق عاصفة نارية:

- كويس يا ماما.

- هو ده كان كابوس أو حلم وحش يا حبيبي؟

- انا معرفش ايه الحلم يا بهية... قلتلك قبل كده ... أنا بقيت كويس.

يجيبها بهدوء وحسم غريبين على طفل، انزعجت الأم كثيرًا . كيف لشيطانها الصغير أن يهدأ ولا تنزعج؟

بعد ساعات جلسوا جميعًا حول "طبلية" خشبية بها شرخ في المنتصف، يكاد يقسمها.

أمامهم "الفتّه" تغوص بها قطع اللحم، يتناول خائف الطعام بوخم وهدوء غير معتادين، نظرة جانبية تلقيها عليه أمه؛ فتصطدم بوجهه الخالي من المشاعر تمامًا.

تكرر الأم نفس السؤال بغرابة شديدة على البشر، لكن ليس على الأمهات:

- أنت لسه متأثر بحلم امبارح يا "يافا"، عامل ايه يا حبيبي؟

"يافا"... الاسم الذي تعودت أن تدلله به منذ ولادته، لِمَ تصر بهية على فكرة "الحُلم"؟

وجهت عينها إلى زوجها، قالت بحسم:

- عايزين نودي الواد للدكتور.

رد كامل بنبرة يغلفها غيظ:

- ماله الواد؟! ما زي الفل اهو. كمان انتي عارفه... معييش فلوس... الحالة مأشفرة

- مأشفرة ايه يا راجل؟! مانت حاططهم على قلبك...

نظر لها كامل بغيظ، لا يريد الكلام بالمرة، لكنه يعلم أن بهية تظل تكرر الكلام حتى يأتيها الرد:

- أنا مفيش على قلبي غير كوليسترول وفيه جلطة في السكة قولي آمين.

سمع "كامل" صوت طقطقة ركبتي بهية وهي تقوم، فأحس بخوف خَافِت في معدته، وقفت وراءه تلامس ظهره برجلها السميكة كأنها تهدده:

- انت هتستعبط يا راجل؟ قَعَدت تقول كده وفي الآخر طلعت مدَكّن... جبت فلوس اللحمة منين يا كامل؟

الصوت يعلو، والصالة تمتليء غضبًا بأكملها إلا خائف الذي يبدو هادئًا تمامًا. بعصبية قال "كامل":

- أنا مكنتش عايز أقولك، بس اللحمة اللي بتتكلمي عنها من اللي بتسميها شحاتة.

سكت لحظة، ثم أتم بصرخة تخترق فمه:

- داهية تسد نفسِك.

في تلك اللحظة، حرك"خائف" شاشة الهاتف المحمول حتى صارت أمام عيني أبيه تمامًا، وفي عينيه سؤال رهيب... سأله أخيرًا بصوت يمتزج بارتعاشة:

- هي دي؟

نظر له الأب بقلق، لم يحرك رقبته أو رأسه، ولكن خرجت الرسالة من عينيه وتلقاها "خائف" كاملة بحَرفية... ثم قال:

- ربنا يريحني منِك انتي وابنك.

بهدوء شديد، يقرب خائف الهاتف المحمول ليصبح أمام عينيه تمامًا. يجد صورة الرأس المذبوح بجانب رأسه وعلامة النصر المرسومة بأصابعه تتوسطهما.

تلك القطعة من اللحم التي في فم خائف...

ينطلق من فمه سائل لزج ليغرق "الطبلية" والفتة، ثم يتخلل الشرخ السائد في "الطبلية" ويتساقط على السجَّادة وقدم خائف الصغيرة. تصرخ الام:

- سلامتك يابني، سلامتك يا ضنايا.

لا يتقيأ خائف بشكل عادي، بل يحشرج ببحة من الصدر. أفرغ ما في بطنه وصار يتقيأ الهواء، بل يتقيأ روحه... أبوه وأمه يقفان وراءه يدلكان صدره وظهره، مستعدين لتسليم أمانة الله لخالقها.

***

عندما سمع خائف أمه تتحدث منذ سنتين عن حُلم رأته- فهي تجيد تفسير أي حُلم بمجرد أن يُلقي عليها السلام في المنام - قال لها:

- يعني ايه حلم؟

- الحلم هي الحاجات يا حبيبي اللي بتشوفها بالليل بعد ما تنام، بيبقي زي الحقيقة بس مش حقيقة... رسايل بيبعتهالنا ربنا...

سكتت لحظة مترددة، ثم أتمت:

- أو الشيطان والعياذ بالله.

لم يفهم خائف منها شيئا.. ولم يكن يعرف من هم "ربنا" او"الشيطان" أو "العياذ بالله". يرد:

- أنا ماحدش بيبعتلي حاجة.. أنا بنام واصحى.

قال له أبوه بلهجة من يعلم بواطن الامور، كأنه يعرفه أكثر من نفسه:

- مفيش حد مبيحلمش يا حبيبي. انت بس بتنسي الحلم

لم يقتنع خائف يومًا "بأنه بينسى الحلم" بل "مفيش حلم أصلًا".. هذه كانت معضلته الوجودية الوحيدة... مع الوقت تعودها .. ليس هناك من مشكلة.

" فليحلم من يحلم.. أنا فقط ...أنام... فأصحو"

مر أسبوع على حادثة "الطبلية"، لم يضع خائف شيئا في جوفه، هل يمكن أن يحيا طفل بلا شيء يرطب معدته إلا قطرات الماء؟.

نعم، يمكن. عاش خائف على هذا، لم يحدث له أي تغيير كان! فقط صار باهت البشرة، غائر العينين، يابس الجسم، الحياة في عينيه تموت، فيما عدا ذلك بقى خائف كما كان تمامًا..

بنبرة ترتعش بين الرجاء واليأس، قالت بهية:

- الدكتور اللي رحناله منفعش يا كامل، كلم دكتور تاني، الواد بيروح من قدام عيني.

- انا معرفش دكاترة، تعالي ناخده المستشفى تاني.

حقيقة لم يكن "كامل" يعرف أي "دكاترة".. فهو منبوذ تمامًا من عائلته الفاخرة الملآنة "بالدكاترة"، رُمي "كامل" كحجر تافه من حي"الزمالك" الراقي، ليستقر في حي "إمبابة" المتواضع، على مسافة عشر دقائق فقط.

أمسكت بهية هاتف المنزل لتسأل معارفها عن طبيب، فلم تجد إلا "أخا صديقة جارتها"

- خدوا ابنكو فورًا وَدُّوه مستشفي يركبوله محاليل.

هناك، في مستشفي غاضبة من زيها المتسخ ومن سكانها المتهاونين، رقد خائف في حجرة بها أربعة أسِرَّة وسبعة من الأطفال، ستة ذكور وأنثى، لا، ليست أنثي وإنما طفلة جميلة- يخشاها ويتحاشى منها الجميع- تنظر للأعلى دائمًا، كالملبوسين.

***

(٤)

﴿ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ٩ ﴾

[البقرة: ٩]

"لا.. ليست الأسِرَّة أهم ما في المستشفى.. فهي مجرد قطع من "الألومنيوم"، أهم شيء هو"الـروح".

هذا هو المبدأ الذي اعتنقه مدير المستشفى؛ لذلك كانت الغرفة بها ثمانية مرضى وأربعة أسِرَّة، أما الأربعة الباقون؛ فينامون على مراتب موضوعة على الأرض.

ربما نسي مدير المستشفى الطبيب الشهير "صالح موسى" أن يتم حكمته علينا بأن يقول:

- ليست الأسرة أهم ما في المستشفى، ليست الأدوية أهم ما في المستشفى. ليست الأجهزة أهم ما في المستشفى. تلك الـروح هي المستشفى"

نام خائف على الأرض، وخلال يوم تمت ترقيته كموظف "حَلَنْجي" ليصبح من أصحاب الأَسِرَّة. بفضل أمه وتوسلاتها للممرضات والأطباء، وكل شيء يَدِّب فيه الروح في المستشفى الروحاني، حتى القطط في الممرات.

في اليوم التالي صار المشهد عجيبًا، كالملك المُتَّوَج ينام خائف على سريره "المِلْك" وعلى يمينه ويساره ولدان يفترشان الأرض. وعن يمين يمينه طفلة على سريرها تُعَلق نظرها بالسقف كأنما التصق شيء بالسقف لا يراه إلا هي.

لم يلفت نظر "خائف" في الغرفة غير الفتاة، على كل حال، الغرفة ليس بها ما يستحق. على صفين موزعةٌ الأسِرَة والمراتب. أما الحوائط؛ فهي صفراء فاقعٌ اتساخها، والسقف خفيف الإضاءة جدا لإراحة المرضى بالطبع. والحقيقة أن خائف يشعر براحة ليس

بسبب الإضاءة الخافتة؛ لكن لسبب لا يعلمه هو ولا يعلمه أيضا كاتب الكلمات.

بعد أن بدأ خائف يتقبل شُرب بعض العصائر، نزل ليلًا من سريره المَلَكي، ضحك عندما خطا فوق الطفل المفترش الأرض على يمينه، المغطى وجهه كاملا "بالشاش"، وقدمه عليها طبقة من "الجِبس" الخشن.

سمعت الفتاة الناظرة إلى السقف ضحكته، لكنها أيضا لم تنظر إليه. وقف بجانب سريرها، سألها:

- انتي عندك ايه؟

لم ترد الفتاة، بل استمرت بالنظر إلى السقف. فقط، ألقت نظرة من علٍ بطرف عينها.

- طب انتي اسمك ايه؟

حين تلقي بالكرة في الهواء وتنتظرها فلا تنزل إليك مرة أخرى، هكذا أحس خائف حينما لم ترد عليه بغرور.

من الأمام، رأي وجهها أول مرة... فتاة جميلة حقًا تبدو في الثامنة من عمرها، تتمتع بملامح دقيقة كالآسيويين... فم جميل دقيق، عين طويلة ضيقة، شعر "بني" مفرود، كل هذا نما وسط بشرة بيضاء ناعمة.

بشكل طفولي بريء وضع خائف يده على رأسه يتحسس شعره المجعد، رسمت شفتاه امتعاضة، نظر للفتاة مرة أخرى فكانت تضحك هذه المرة، ضحك بصوت رقيق على ضحكتها من هيئة شعره الخشن مقارنة بشعرها الناعم المتوسد "مخدتها".

هذه أول مرة يراها فيها تضحك منذ أن وصل ، والمرة الأولي التي يري نفسه يضحك أيضًا، فعل نفس الحركات الساذجة مرة أخرى ليضحكها، لم تضحك بل نظرت له باستخفاف.

أقام ملامح وجهه مرة أخرى؛ ليبدو كرجل جاد في السبعين. نظرت له بغيظ، فرقق ملامحه سريعًا خوفًا منها.

- أنا خايفة أوي.

قالت الطفلة كلماتها بشَك... رقيقة هي كتلك الفقاعات الملونة الممزوجة "بالصابون" في لعبة الأطفال المعروفة.

كررتها الطفلة:

- أنا خايفة أوي... انتَ اسمك ايه؟

- أنا خايف.

قد سألَها عدة سؤالات من قبل ولم تجب هي، وفي لحظة أجاب لها عن أول سؤال تسأله...

يا لأطفال الرجال.. خُلِقوا رجالا!

أزاحت عينها عن وجهه، وسَمَّرَتْها مرة اخرى في السقف... كررها مرة وأخرى لعلها تسقط عينيها عليه:

- أنا اسمي خايف.

نظرت له بدهشة طفل... تطاير خائف فرحًا وأعادها:

- انا اسمي خايف... ده اسمي، انتي اسمك ايه؟

قالت:

- سلمى يحيى عوض.

(٥)

﴿ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغۡفِرَةٗ مِّنۡهُ وَفَضۡلٗاۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ٢٦٨ ﴾

[البقرة: ٢٦٨]

الأطفال لا يحبون كالرجال، الرجال تشتهي، تُثار ثم تحب، أما الطفولة؛ فتحب.

الحضن الذي تخيله "خائف" من "سلمى" لم يكن حضنًا خبيثًا كجِنْسه، بل نورا ملأ المكان بينهما.. كيف ينمو نور وسط غرفة مكدسة بالاجساد القذرة والحشرات المُطَارَدة؟

- انتي عندك إيه يا سلمى؟

- ...

لم ترد الطفلة... وقف أمام سريرها، يلامس إبهام قدمها بأنامله، يداعب أصابعها بلا وعي، وهي لا تحرك ساكنًا كأنما باعت له قدميها، يفعل بها ما يشاء، فقط ناظرة إلى وجهه الأسمر كبير المنخار.

في اليوم التالي صار خائف يبتلع وجبة المستشفى الكئيبة ابتلاعًا... أمر له الطبيب بالخروج.

سأل خائف أمه:

- انا هخرج امتي يا ماما؟!

- بكرة الصبح اول ماتْفَتَّح عينك نروح بيتنا على طول

فكر خائف لحظة... قرر في لحظة.. هذا هو "خائف"، تمامًا كأبيه "كامل" عندما كان صغيرًا.

نظر للطعام باشمئزاز، ثم انقض فجأة على الطعام كجائع منذ سنوات، قال لأمه:

- اشتريلي كيس "شيبسي" من تحت يا ماما.

لم تمر عشر دقائق إلا عادت الأم كَجِنِّي علاء الدين، تمسك كيس "شيبسي".

على باب الغرفة صُعِقت. سَمَّرَت عينيها على خائف.. ركضت ناحيته فداست على "قصبة رِجْل" الطفل المُلْقى أرضًا أمامه، ما كان من الطفل إلا أن صرخ بجنون، وصرخت معه أمه الجالسة أرضًا بجانبه، تنظر بهية إلى جسد "خائف" المُلقى على سريره، تصرخ برعب:

- إيه اللي جرالك تاني يا ضنايا؟!

أُم الطفل المُلقى أرضًا قررت بجرأة أن تدك عظام "بهية"، شَدَّت بهية إليها فما كان من بهية إلا أن استدارت لها بعين نارية.

نظرت المرأة لبهية ذات الجسد العريض والعين النارية، فهربت جرأتها للخلف وابتلعت يدها ما كانت تنوي القيام به (حتى صوتها انقلب عليها ورفض نطق كلمة واحدة) حشرجته بصعوبة "لتسليكه"، قالت بصوت مهتز لبهية:

- مش تحاسبي ياست انتي... هَتِكْسري الواد!

لم تكن المرأة ذات الجرأة الهاربة تعرف أن "الواد" قد كُسر بالفعل، هذا الطفل "المنحوس" قد دخل المستشفى لعلاج التهاب رئوي بسيط يحتاج أسبوعًا، وسيخرج بكسر في القدم يحتاج شهرين في "الجبس".. يا لذلك المستشفى الروحاني! تراجعت المرأة أمام بهية قبل أن تُكسر مثل ابنها.

التفتت بهية إلى خائف الذي كان نائمًا على بطنه بعرض السرير متدليًا برأسه على الأرض ويعطي للغرفة مؤخرته. رأت بِركة كبيرة من قيئه على الأرض وعلى "الشاش" الملفوف على وجه الطفل الذي عن يمينه، يحشرج خائف كأن الروح تتشبث بآخر خلية في جسده.

على وجه "خائف" ابتسامة شيطانية... لم يلحظها أحد من الموجودين، إلا كاتب هذه الكلمات. يا للطفل المجنون!

الطفل الذي تحته انتفض من رائحة القيء في البروز الظاهر لأنفه من تحت الشاش. انتفض وصار يجري بعرجة مضحكة على قدمه "المُجبسة"، ليسقط هو الآخر على الطفل المنحوس مكسور القدم.

المشهد صار مأساويًا "كوميديا" في الغرفة. الطفل "المنحوس" يصرخ ويمسك قدمه المكسورة، فوقة مُكوَّم الطفل ذو "الشاش". وأم الطفل المنحوس، المرأة ذات الجرأة الهاربة بجانبهما تصرخ وتضرب الطفل ذا الشاش بغيظ رهيب؛ فيصرخ هو الآخر بدوره، لا يعلم أيصرخ من تقززه من القيء أم من ضرب المرأة؟ خلفهما، يحشرج "خائف" استعدادًا للموت، بجانبه بهية تولول وتصرخ مع الصارخين..

وكأن الصراخ معدٍ، فقد انتشر الصراخ في الغرفة بكاملها. حتى الممرضات اللائي أتين من الخارج صرن "يزعقن" ويصرخن.. بين كل هذا "سلمى" كأنها من عالم آخر، مستمرة في النظر إلى السقف...

الغريب أن في تلك اللحظة، كان خائف يضحك بصوت عالٍ جدًا، يهتز من الضحك بشدة، أمه من خلفه لا تسمع الضحكات من كثرة الصراخ، فقط ترى اهتزازات جسده فتظنها اختلاجات خروج الروح فيزداد صراخها.

***

هذه الليلة هي سلمى.

وقف خائف أمام سرير سلمى، ناداها بهمس:

- "سلمى"

فتحت عينيها سريعًا، قال:

- كنت عارف انك هتكوني صاحية يا سلمى.

سألته غير مدركة مرض الطفل العجيب:

- هو انت عندك ايه؟ كنت بتْرَجَّع ليه؟

ابتسم خائف ابتسامة احتوت كل خبث أطفال العالم، أخفض صوته أكثر:

- اقولك ومتقوليش لحد؟

رمشت بعينيها بقوة ففهم وعدها، أكمل:

- أنا كويس يا سلمى، أنا اللي خليت نفسي أرَجَّع عشان مخرُجش.

كيف تَعَلّم الشيطان الصغير"خائف" أن يضع إصبعه في جوفه ليتقيأ ما أكل؟ لم يكتفِ بل استمر يحشرج بعِناد حتى أحس أن روح أمه ستخرج. رَق قلبَه بعدها؛ فقرر أن يَكُفْ عن القيء، رحمة واسعة أنزلها من عليائه على أمه..

- يعني انت كنت بتضحك عليهم، طب عملت كده ليه؟

سألت وراهنت نفسها أن الإجابة ستكون مُرْضِية لأنوثتها!... أنوثتها التي مازالت تحبو.

يا لأطفال النساء.. خُلِقوا نساءًا!

رد خائف بهدوء:

- عشان مش عايز اخرج، عايز اقعد معاكي.

هذه هي التي أرادتها... و"خائف" برغم كل كيده فإنه ليس مثل كيد الطفلة الجميلة.

ليلة كاملة تحدثا كثيرًا... سألها:

- انتي عندك إيه يا سلمى! إيه اللي واجعك؟

- انا معرفش... بس من فترة لقيت جسمي كله بيوجعني، وبعد كده مبقتش أعرف احرك إيدي ولا رجلي.. أنا بابا هياخدني بكرة...

دهش خائف. "هياخدوها ازاي بدل لسه ماخفتش؟" أليس من المفترض أن يخرج كل "الموجوعين" من المستشفى "كويسين" ؟ اكملت سلمى:

- انا سمعت ماما بتقول لبابا أن عندي "ملبوسة".

سألها:

- هي ايه الملبوسة دي؟.

- مش أعرف. بس اكيد هي اللي بتخليني مش بجري أو اتحرك.

بعدها سألها خائف عن مسكنها فردت بفطرية كاملة أنها:

- ساكنة فوق عم عامر بتاع السوداني...

ضَحِك خائف، وتألم في نفس الوقت، فأين يجد "عم عامر" بتاع السوداني؟

***

في اليوم التالي، سأل خائف أباه:

- بابا.. هو تعب "الملبوسة" بيخف؟

مط الأب شفته السفلى علامة عدم الفهم، أوضح خائف:

- أصل "مامة" سلمى بتقول إن عندها "ملبوسة".

شهقت بهية ورجعت إلى الوراء لتزيد المسافة بينها وبين سلمى كأن سلمى فيروس "كورونا" سيقفز عليها. قالت بصوت عالٍ مقصود:

- أعوذ بالله من الشيطان الرجيم... ربنا يحفظنا

ثم مصمصت شفتيها الغليظتين قبل أن تُكمل:

- أكيد ملبوسة... شوف البت شكلها إيه وابوها وامها عاملين إزاي! البت دي "مِتْزَادة" من اِسْيَادنا من صُغرها.

لم يكن اختلاف ملامح سلمى عن أبويها يحتاج إلى دقة ملاحظة، بل هو شمس "أوغسطسية" تصرخ للعَيان... فسلمى بنت حلوة الملامح دقيقة التقاسيم، أما أبواها؛ فهما أقبح أهل قريتهما.

يا لتلك الجينات الخبيثة! أو ربما خفيفة الظل!!

في هذه اللحظة، انحنى أبو سلمى ليلتقط ابنته من سريرها. تستقر على ذراعه... ناداه خائف.."عمو".

علق خائف لسانه لثوانٍ ثم أكمل:

- أنا عايز نِمرِتَك وعنوانك عشان اكلم سلمى.

أفواهٌ مفتوحة ودهشات، "زَغْدة" من بهية في جنب خائف الأيمن، قالت أم سلمى بصوت عالٍ له مغزى.

- يالا يابو سلمى مش ناقصة قلة أدب.

رأى خائف سلمى على كتف أبيها تبتعد، تخيل لحظة ألَّا يراها مرة أخرى.

صرخ خائف.. لم يسمعه أبوه، لم تسمعه أمه، لم يسمعه أحد. ربما سمعته "دارتي"...

*****

(٦)

﴿ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾

[البقرة: ٧٧]

الحياة واحدةٌ والبشر كُثُر.. الحق واحد و"الحقيقة كُثُر"..

تلك "الطبلية" واحدة! بمجرد أن دخل خائف وأبواه من باب الشقة، وجد "الكنبة" الخضراء، أمامها كرسيَّان صغيران، والطبلية القديمة.

لا يمكن الرؤية إلا بعد أن يضغط "كامل" على زر الإضاءة، على الرغم من أن الساعة هي الثانية عشرة ظهرًا... مكان الطبلية أن تُركن على الحائط، لكنها الآن مقلوبة على ظهرها، أقدامها للأعلى كمن يتشنج.

جلس – الثلاثة - على "الكنبة" الخضراء، تسرق بهية نصفها. يتعلق نظر الثلاثة بالطبلية بشكل عجيب... كلٌ منهم يراها شيئًا مختلفًا تمامًا.

الطبلية واحدةٌ والذاكرات كُثُر!

يتذكر خائف قيئه الذي مر عبر تشققاتها، "دارتي" التي صارت تسكن الآن معدته، تتلبس جسده... شَعَر برغبة للقيء، لكنه قاوم هذه المرة. شيء ما غامض جعله يتشبث بذلك المزج الذي حدث بين جسده وجسدها، نظر إلى أبيه وأمه بجانبه، يتساءل:

- " لِمَ لا تمتزج لحومهما مع دارتي مثله؟ لِمَ نسياها في لحظة؟"

الطبلية واحدة والذاكرات،كُثُر!

تتذكر بهية نفس الطبلية منذ أكثر من ثلاثين عامًا... كانت جديدة تماماً تلمع، تتذكر "الرَصّة" حولها مع أخيها وأبويها في نفس هذه الشقة... تجلس بجسدها الطويل النحيف جدًا على حِجر أمها، تأكل "المفتقة" وتهتز كأنها تتأرجح، توقفها أمها بلطف:

- يابت يا بهية ماتتهزيش، ط..ك ناشفة، حاسة إن دبوس

بيرشق في رجلي.

تتذكر الأيام التي استدار فيها جسدها، الأيام الجميلات لأي فتاة كانت أشبه بكابوس لبهية... أمها التي كانت تلف على شقق جاراتها لتقسم لهن بكل غالٍ أن ابنتها شريفة، عفيفة كرابعة لعدوية !!

تبتسم بهية بسخرية، تهمس بصوت مسموع:

- ياريت ط...ي فضلت ناشفة ياما، كان حالي بقى أحسن من كدة.

الطبلية واحدة والذاكرات كُثُر!

يقترب كامل من الطبلية، ينزل على ركبتيه، يلامس تشققاتها المتسخة، يدخل يده في تجويفاتها ويداعبها.

أدار رأسه حوله... فأحس بشكل عجيب أنه يرى البيت أول مرة، نظر إلى بهية وخائف ثم انفجر في الضحك... يهتز جسده بقوة... دموع محتبسة في عينيه تراوده عن رجولته...

يتذكر جيدا "السُفرة" في بيت أبيه، موضوع عليها تمثال برونزي- تمثال لفارس يمتطي فرسًا يصهل على قدميه الخلفيتين. عندما سقط السيف من التمثال... أخذه الصغير"كامل" ليحتفظ به.

سأله الأب عن السيف ليلصقه في التمثال مرة أخرى، رأى كامل الدموع تنزلق من عين أبيه على ذلك السيف الغالي له؛ فأدار وجهه باستهانة ولم يهتم. بل لامس الصغير كامل جيب بنطاله بسعادة ليتأكد أن السيف في موضعه.

يحتفظ كامل بالسيف منذ أكثر من ثلاثين عامًا، تذكره فجأة، جري ناحية غرفته، يبحث عنه في صندوق "بلاستيكي" تحت السرير، تَعَرَّق بجنون، تُحشرج أنفاسه بصوت مسموع.

يبعثر كامل محتويات الصندوق على الأرض، ويقلب فيها بوحشية...

- فين السيف يا وْلِيَّة؟

قالها بصرخة غضب غير مُعتادة منه، فهو رجل بَارٌّ بزوجته.

- فين الزفت يابت الكلب؟!

هذه كانت القاصِمَة... بهية، قد احمر وجهها الأسمر، تلعنه وتلعن اليوم الأسود "اللي شافته فيه". وسط صريخها الذي لا يسمعه ركل محتويات الصندوق، صار يدور حول نفسه، يلمح ظل أشياء فوق الدولاب الصغير، يصعد فوق كرسي، يقذف كل ما يجده على الأرض بجنون.

بعدها ينزل كامل من فوق الكرسي هادئا تمامًا ويده تتشبث بسيف صغير، سيف من البرونز عليه طلاء من الذهب بحجم كف اليد... جلس على سريره بهدوء وسط صرخات بهية العالية...

نظر إلى بهية فوجد عينيها فُوَّهَتَي بُركان نشط.

قال في نفسه:

- "تبًا لي! ما الذي قلت يابن الكلب؟"

عرف أن حياته ستكون جحيمًا في الأيام القادمة، وربما الأسابيع القادمة.

لكن هذا الجحيم لن يكون .. لحسن حظه، أو ربما لسوءه..

، في واد آخر يفكر "خائف":

"تُرى ما "الملبوسة"؟!"

***

(٧)

﴿ رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١٢٩ ﴾

[البقرة: ١٢٩]

في يوم حار يتمدد "كامل" فوق سريره، تتشبث قبضته بسيفه البرونزي الحاد... تَعَوَّد في سنوات عمره، ربما بشكل غير واعٍ، تَعَوَّد أن يصحو فَيَحك شعر رأسه المُجَعَّد، ثم يهز رأسه بعنف ليُسقط ما تعلق بعقله من الأحلام، فينساها.

اليوم، قبل أن يحك شعره أو يهز رأسه، يسمع صوت بهية تصرخ بجنون:

- يا مصيبتي !.. الحق يا كامل اللي بيحصل لابنك.

ركض"كامل" إلى غرفة خائف. لَمحَ بهية بجسدها العريض تنحني للأمام بجذعها ثم تعود للخلف، وتُكررها كأنها رقصة جنائزية. قالت بصوت باكٍ:

- الواد هيضيع... الحق يا كامل.

ذُهِل كامل لما يَرى: ينتقض خائف عل السرير بشكل مُفزع فتكاد رأسه تصطدم بالسقف، على وجهه التواءات آلام رهيبة وخوف... عينه غائرة صار بياضها أحمرَ، ووجهه الأسمر صار أبيضَ، يئن بصوت يخرج من الصدر مباشرة...

الأنَّات صارت صراخًا متألمًا، لم تَتَدَخل "بهية" لتهدئة "خائف". المشهد أمامها كَلَّفَها كل قدرتها على الحركة.

تَرَى ابنها ينتفض للأعلى، وتسمع صوت خبطته على السرير، فَيَدُق في قلبها، تَمَنّت لو تتلقفه في الهواء؛ لتحتضنه قبل أن يسقط.

بعد مدة ليست قصيرة، صار "خائف" يتلوى يمينًا ويسارًا، مثبتًا عينه تجاه السقف.. تذكرت بهية فورًا مشهد المستشفى، سلمى

على سريرها تنظر فقط إلى السقف... لسان "بهية" المسجون في حلقها أخذ حكمًا بالبراءة. قالت:

- مالك يا حبيبي؟! مالك يا "خايف" يا ضنايا؟ إن شالله أنا...

طوال تسعة أعوام هم عمْر ابنها لم تنادِه باسمه "خايف"، طالما كرهت الاسم، لكن في هذا اليوم العصيب، حدث تصالح عجيب بين "بهية" والاسم "خائف".

بعد مدة، صوب خائف بصره ناحية أمه... قال بلسان مرتجف وصوت متألم:

- غطوني.

ذهلت الأم، فالعرق يتصبب من جسد ابنها! أعادها مرة أخرى بنفس الصوت المرتجف.

- غطيني يا ماما، غطيني.

غطت ابنها المرتعش بغطاء صيفي. كَرَّر الكلمة فما كان منها إلا أن أزاحت الغطاء الصيفي، وأتت له ببطانية ثقيلة. قالت:

- الواد ملبوس... منها لله.

لم يرد كامل بجملته المعتادة "ايه يا وليه يا جاهلة!"، ليس خوفًا من رد فعلها، لكن ليقينه هو أيضًا من شدة ما يرى بأن " الواد ملبوس".

يهمس لسان "خائف" بأحرف غير مسموعة كأنها طلاسم، عينه نصف مغلقة تهتز بشدة، تظهر نصف حدقتها فقط، يفتح

خائف عينيه بقوة فجأة، ينظر لأمه في عينيها:

- أنا خايف أوي.

- متخافش يا حبيبي، ربنا مش هيخزيك .. أنت ولد كويس ماعملتش حاجة وحشة.

احتضنت بهية خائف، تمسح عرق وجهه، وتهدهده بحب... مرت ساعة هدأ فيها بعض الشيء.

نظر كامل ليده فوجدها مازالت تتشبث بالسيف البرونزي الحاد، تمتزج دماءها بالعَرَق، لف يده بمنديل، وعاد إلى ابنه الذي يرتسم خوف ودهشة في عينيه.

أسند كامل خده إلى قبضته، رأى بِرَكًا غزيرة من الدماء تغرق الأرض، يرتمي على بطنه، يحاول القيام فلا يستطيع، هواء مُثَّلَج يكوي جلده، ويقرص قلبه.

بعيد عنه، بعيد تمامًا بحيث لا يستطيع رؤية الملامح، تنام فتاة صغيرة على بطنها محاطة ببقعة كبيرة من الدماء على جنبيها.

يصرخ... يحاول الزحف للوصول إلى الفتاة، أمتار قليلة زحفها في وقت مر ساعات.

فجأة...

يصطدم رأسه بشيء صلب، ينظر تجاهه، يجده حذاء رجل، يرفع رقبته للأعلى فلا تصل عينه إلّا إلى صدر الرجل، يضع الرجل حذاءه على جبهة كامل، يركله ويعود خطوة إلى الوراء؛ ليسمح لكامل بأن يرى وجهه.

عرفه كامل فورًا، بسمرته وملامحه الغليظة وشعره المجعَّد، وعلى خده الأيمن تتناثر بُقَع سوداء... "موسى حكيم" يقف بحذائه "الناشف" وقفة متكبرة، مشبكًا يديه ناظرًا للأسفل إلى "كامل" باستهزاء، أسقط كامل رأسه على الأرض مرة أخرى، أحس بقهر بالغ.

انتفض كامل فجأة ليعي أنه مازال على نفس الكرسي الضيق، مسندًا خده إلى قبضته، وأمامه بهية وخائف... تذكر ذلك الرجل، لم يره منذ أكثر من ثلاثين عامًا، لمح صورته كثيرًا في التلفاز و الجرائد؛ لكنه لحسن حظه لم يراه أمامه وإلا لزادت معاناته أضعافًا.

قام ببطء شديد من مقعده، يَسْحب قدميه خلفه، نظر ليده، فوجدها تنزف من أثر تشبثه بالسيف البرونزي الحاد.

ليست يده فقط التي تنزف... بل صارت حياته تنزف من جديد.

***

(٨)

﴿ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦ ﴾

[البقرة: ١٥٦]

أربعون ساعة كاملة مرَّت مُنذ أن أصيب خائف بتشنجاته الشديدة، لم ينم أي من الثلاثة لحظة، يجتمعون في غرفة خائف، يحوطهم صوت قراءة سورة البقرة للشيخ "أحمد العجمي".

أما خائف، فموجود فوق عشب أخضر، يتلمسه بظهره، تقذف الشمس أشعتها الحامية فتصيب جسده كله. ينظر لجسده فيجده غريبا، كأنه ليس جسده... عريان بالكامل. جلده ناعم، متسخ شيئًا ما، هاديء الحركة تمامًا، لكنه يرتعش... يشعر بين فخذيه بحُرقة وحَكَّة، وتضيء جسده نشوة صارخة.. يهتز بعنف وتنتشي كل خلية في جسده... ينهم من لذة أنثوية غامضة.

كم يتمني أن يدوم هذا طويلا! تهدأ خلاياه بعدها...يشعر باسترخاء عجيب وبتناغم مع الكون.

ينظر خائف بين فخذيه، يشهق ويأخذ نفسًا يكاد يفجر رئتيه، يرى فخذيه بلا شيء بينهما، ذلك العضو الذي يقدسه الرجال في أجسادهم قد اختفى، صار تمامًا كالفتاة العريانة التي رآها منذ سنتين مصادفة في "حمّام" مدرسته، صرخ... صار يرتعش بقوة أكبر من تَحَمُّل جسده الضئيل.

في غرفته المظلمة، يصحو خائف من نومه، ينظر بدهشة، لا يتبين أين هو... تستمر ارتعاشته التي لا يستطيع السيطرة عليها... ارتعاشات أقل من المرة السابقة كثيرًا، وجهه به مزيج عجيب من الألم، السعادة، الحيرة واللذة.

تصحو الأم أيضا من نومها الخفيف بجانبه، لا يراها خائف...

فجأة ينظر إلى الأسفل... ينزل بنطاله و"لباسه الأبيض الداخلي"، يتحسس مكان عورته الذكوري بجنون، يبعد يديه وينظر إليه بتعجب، ثم يعيد تلمسه مرة أخرى، يضحك بصوت أعلى من تسجيل سورة البقرة.

انقضت بهية بقوة وألم على يد خايف لتبعدها عن مكان عورته، نظر لها مشدوهًا، تنقلب ضحكته حرجًا في لحظة، ترسم شفتاه ابتسامة بريئة.

قالت بهية بحسم لكامل:

- لازم نروح نِوَدِّي الواد لحد يا كامل.

نظر لها كامل علامة عدم الفهم فأتَمّت:

- أنت فاهم قصدي... الواد ملبوس

مرت هذه الكلمة على أذن خائف فتعلقت بها كَحَلق ملبوس. "ملبوس"... نفس الكلمة التي سمعها من "سلمى".

نصف ساعة مرت ثم قال كامل لزوجته:

- خدت معاد بكرة نروح للشيخ؟ بيقولوا بيفك السحر لله ..

نظر خائف لأمه وأبيه بعين خالية من كل شعور، قال:

- أنا مش زي سلمى، أنا معنديش "ملبوسة".

نظرت له الأم بحنان، لكن سرعان ما انقلب وجهها نارًا

- ماتجبش سيرة الهبابة دي... هي السبب في اللي احنا فيه..

ربنا ينتقد ...

بحسم غريب عن كامل قاطعها:

- خلاص يا بهية خلينا في اللي احنا فيه.

في ذلك اليوم يشعر كامل وزوجته بهم عظيم أما خائف، فيسترخي جسده وتبتسم عيناه بلذة، بشكل يخيف الأبوين أكثر.

***

(٩)

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا بِٱلۡأٓخِرَةِۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ٨٦ ﴾

[البقرة: ٨٦]

أمام مجموعة من الطلبة تقدر بثلاثين طالبًا، يقف على الدرجة العليا عن باقي القاعة... يُنَقِّل بينهم نظره بثقة، ينزل درجة إلى الأسفل، يقول:

- أنا دكتور "عزمي حافظ"، هبقى معاكم في مادة فلكلور عبري السنة دي... أظن أغلبكم يعرفني من قبل كده...

يومِيء إليه أغلب الطلبة علامة الإيجاب، يتحدث الدكتور "عزمي" بثقة شديدة، يخرج "سيجارة" من جيبه، يأخذ نفسًا منها ويخرجه ببطء شديد، فجأة، يسأل:

- حد يعرف يقولي عدد المسلمين كام في العالم؟

تنطلق أسهم الإجابات سريعًا إلى أذنه، إجابات أغلبها صحيح، يومِيء إليهم عزمي إيجابًا.

- نعم، أحسنتم.. تقريبًا، مليار ونصف.

يأخذ نفسًا آخر من الهواء هذه المرة، يسأل:

- طب حد يعرف عدد اليهود في العالم كام؟!

عدد أقل من الأسهم الأولى تنطلق من ألسنة الطلاب، أغلبها طائش خطأ، فيجيب هذه المرة بنفسه:

- نعم، تقريبًا خمسة عشر مليون.

تمر وهلة ينظر فيها إلى اللاشيء ثم يكمل:

- طب حد ضل طريقه من قسم الرياضيات يقولنا احنا عددنا قد اليهود كام مرة ؟.

لم يكن أحد من الحاضرين قد ضل طريقه من قسم الرياضيات، بل جميعهم هربوا منه، بعضهم ظل يحك رأسه، وآخرون أطلقوا سهامهم الساذجة:

"عشر مرات، خمسين مرة، عشرين مرة، مرتين"

كررها د.عزمي بسخرية "مرتين!" ثم نظر لهم بيأس، قال:

- هوفر عليكم الوقت، المسلمين في العالم قد اليهود تقريبًا مئة مرة، يعني قصاد كل واحد يهودي فيه مئة مسلم.

"أخذ نفسًا عميقًا ثم أكمل:

- وبرغم ذلك، نحن الآن في ضعف وهوان.

دكتور عزمي يعامل الطلبة بأبوية واضحة، بالرغم من الثقة المستفزة بعض الشيء في عينيه ونبرته، يرتدي بِذلة صيفية رمادية من الطراز القديم... أكمل بنبرة حانية:

- هسألكم سؤال... لكن هذه المرة نريد الإجابة بشيء من النظام لأهمية السؤال، فاللي حابب يجاوب يرفع إيده ويجاوب...

ناظرًا إلى طلبة "البنش" الأول الذين يستمعون إلى كلماته كمن يستمع إلى وصية أبيه، سأل:

- في رأيكم رغم فارق العدد ده وأيضًا الفارق الإيماني بين الأُمتين، ليه هم الأقوى بهذا الشكل؟

تناوب الطلبة الإجابة فمنهم من قال:

- هي فتنة وابتلاء من الله.

قال آخر:

- عشان المسلمين ابتعدوا عن طريق ربنا.

قال أخير بحماس:

- عشان العِلْم يا دكتور، احنا لسه عايشين على سجَّادة الصلاة، كسلانين نقوم نتحرك لكن هم خدوا طريق العلم.

نظر بعض الطلاب للطالب الأخير بعنف، لكنَّ الدكتور "عزمي حافظ" لم يبدُ عليه الغضب مثلهم، قال:

- بشكل ما كلكم صح وكلكم غلط، هو بالتأكيد ابتلاء من عند

الله لكن ربنا قال: ﴿ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ﴾ يعني احنا فعلا ابتعدنا عن ربنا، وفعلا احنا ابتعدنا عن العلم بالرغم من أن ده فرض على المسلمين، لكن ليه ده حصل؟ احنا على مدي تاريخنا كنا أمة أخرجت الكثير من العلماء في مجال العلوم الدنيوية.

لم يتلقَ دكتور عزمي هذه المرة أي سهم طائشٍ أو غير طائشٍ من الإجابات... سكت ثانيتين ثم أكمل:

- هحكيلكم حكاية، سنة خمسة وتسعين من القرن الماضي (١٩٩٥) بعد توقيع معاهدة "أوسلو" بين الفلسطينيين والكيان اليهودي... المتطرفين من اليهود شافوا المعاهدة دي خيانة من سلطتهم السياسية وتنازل عن الأرض، أرض اسرائيل المقدسة.

أمام بيت "إسحاق رابين" - رئيس وزرائهم- ومُوَقِّع المعاهدة، التف عَشْرة من رجال الدين اليهود (الحاخامات) على شكل دائرة، يمسكون بينهم نسخة من التوراة المحرفة يرتلون الآتي:

اعتدل الدكتور "عزمي"، ثم أصدر صوتًا رخيمًا كالإنشاد أو ترتيل القرآن... يرتل بخشوع:

- "على إسحاق ابن"روزا" الملقب بإسحاق رابين، أَذِنَ لنا الإله أن نطلب من ملائكة الدمار أن يقذفوا سهماً على ذلك الرجل الملعون - إسحاق ابن روزا- ، أن تقتله ملائكة الدمار لإعطاء أرضنا - أرض إسرائيل المقدسة- إلى أعدائنا - أولاد إسماعيل-، نطلب من ملائكة الدمار أن يصبوا عليه اللعنات".

يصدح بها عزمي كمنشد ديني رائع، بحماسة شديدة حتى خشي الطلاب أن تُصب عليهم لعنات "إسحاق بن روزا". سكت دكتور عزمي لحظة حتى هدأت اللعنة التي كانت تسيل على لسانه، أكمل بصوتٍ عادي:

- دي بيطلق عليها لعنة "البولسا دي نورا".

ده حصل في "يوم الغفران"، أقدس أعياد اليهود، أمام بيت إسحاق رابين - رئيس وزراء الدولة اليهودية في ذلك الوقت، ومُوَقِع معاهدة أوسلو مع الفلسطينيين وأولاد إسماعيل، يقصدون العرب بالطبع.

بهدوء سأل الدكتور"عزمي":

- حد عارف إيه اللي حصل بعدها؟!

لم ينطق أحد... ينظر عزمي في أوجه طلبة تلتاع؛ لتعرف باقي القصة... سكت لحظات طويلة، لَف حول نفسه بهدوء لينظر لهم مرة أخرى، أكمل:

- بعدها بأقل من شهر قُتِل "إسحاق رابين".

الموضوع ده أظهر للعالم كله قوة السحر اليهودي لكن للأسف ما أظهرش للمسلمين...

العالم وقتها كله اتكلم عن لعنة "البولسا دي نورا". والموقف ده فضح اليهود، وكشف الكم الكبير من الحوادث المميتة اللي حدثت للسياسيين اليهود.

صمت لحظة ثم سأل بخبث:

- أحكيلكم حكاية تانية؟

بدون أن ينتظر إجابة، أكمل:

- في شهر "يوليو" ٢٠٠٥ خرج مجموعة من الحاخامات اليهود، وقالوا أن رغم الحراسة الشديدة جدًا على رئيس وزراء إسرائيل "ارئيل شارون" اللي بتفوق الحراسة اللي كانت على هتلر، لكن هم صبوا لعنة "البولسا دي نورا" على شارون، ومنتظرين نهايته خلال ست شهور بقوة لعنة "البولسا دي نورا".

وجه دكتور عزمي حافظ نظره إلى طلبته، سأل:

- حد عارف إيه اللي حصل بعدها؟

لم يتذكر أحد من الطلبة، فأتم دكتور عزمي بعد ضحكة مقتضبة:

- في يناير ٢٠٠٦، أي قبل مرور الستة أشهر، دخل شارون في الغيبوبة الكاملة اللي أودت بحياته.

حوادث كتيرة بهذا الشكل، ومنهم بردو ما حدث قبل موت جمال عبد الناصر.

سكت الدكتور "عزمي" برهة ليلتقط أنفاسه، ثم أكمل:

- فيه مقولة يهودية ساخرة بتقول:

"أنت لم تَشُق طريقك في سياسة دولة إسرائيل إذا لم يلعنك أحدهم "بالبولسا دي نورا" مرة عالأقل.... بمعني أن أي سياسي في الدولة اليهودية غالبًا فيه حد متطرف هيلعنه "بالبولسا دي نورا".

سكت لحظات، حكَّ شُعَيرات لحيته النابتة، ينظر في وجوه جميع الطلبة، هدوء كامل يلف أنحاء القاعة وقلق... اكمل بوجه بدا عصبيًا:

- المشكلة يا ولادي أننا بنهرب، خايفين نواجه... السحر اليهودي لا يُصَب فقط على السياسيين اليهود، لكن أكثر منه مئة مرة يُصَب على المسلمين..

احنا هندرس الفلكلور العبري مش بس عشان الامتحان، لكن عشان دي خطوة مهمة جدًا في طريق الخروج.

المرة الجاية هنتكلم عن "التلمود"... كأهم مصادر السحر عند اليهود.. اقروا عنه ونكمل المرة الجاية...

يرن هاتفه بإضاءة عصبية، يرد بعنف:

- ايوة يا آدم... عايز ايه؟!.

يصمت طويلًا، همهمات متلاحقة، فجأة يغلق الخط، وعلى وجهه علامات الحقد، يتحول وجهه من اللون الأبيض الهاديء إلى الأحمر الغاضب، يتمايل جسده بلا سيطرة منه حتى يستطيع أخيرا أن يُسقطه على أول مقعد يقابله.

***

(١٠)

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾ ﴾

[البقرة: ٢٠١]

يدخل خائف وأبواه شقة غامضة التفاصيل، في حي السيدة زينب الشهير.

أبواه يلتقطان تفاصيل الشقة بجوانب أعينهم حرجًا، أما خائف؛ فتَدُور رقبته كماكينة بحثًا عن كل تفصيلة غريبة في الشقة، وما أكثرهن!...

في الحائط المواجه لباب الشقة ثلاثة "تابلوهات" بجانب بعضهن أدهشن "خائفًا"، أوسطهن هو الأكبر بشكل واضح كأنه زعيمهن.

تتكيء سورة الفاتحة على التابلوه الأول، بكتابة ذهبية ممتزجة بالصدأ على خلفية سوداء، حول أحرف سورة الفاتحة علامات غامضة تشد النظر.

من بين الآيات جميعها، تضيء فقط أحرف ﴿ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥ ﴾ وأحرف ﴿ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ ﴾، أحرف ذهبية لامعة بشدة مُزال عنها الصدأ تمامًا.

بجانبه التابلوه الأكبر عليه آيةُ الكرسي من سورة البقرة، تضيء بينها أحرف ﴿ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ ﴾ .

أما التابلوه الثالث، فعليه من الآية الخامسة والستين إلى الآية السبعين من سورة طه... بين الآيات تضيء الكلمات الآتية ﴿ لَا تَخَفۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡأَعۡلَىٰ ۝٦٨ ﴾ وكلمات ﴿ فَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا ﴾

الحوائط البيضاء تنتشر بها شقوق تبدو كلوحة سريالية أو بعض الطلاسم غير المفهومة.

يجلس أمامهم رجل خمسيني بملابس بسيطة نابت شعر اللحية، أسود شعر الرأس، هو نفس ذاك الرجل الذي تحدثنا عنه. الدكتور "عزمي حافظ"، يسأل "خائفً" بهدوء:

- انت اسمك ايه بقى يا حبيبي؟

- اسمي خايف.

- بس انت مش خايف خالص.

ينظر الدكتور"عزمي" إلى"كامل"، ويتابع بضحكة تغشي ملامحه:

- ابنك مش اسم على مُسَمَى يا أستاذ كامل.

لا يعلم "دكتور عزمي" أن هذا هو أكثر ما يقلق "كامل"، أن ابنه "مش اسم على مسمى". لم تكد تمر دقائق حتى سأل عزمي بضحكة ترتسم على وجهه:

- ايه بقى المشكلة مع ابننا خايف اللي مش خايف؟!

فجأة انطلقت بهية بحدة وعصبية واضحة:

- البت اللي قابلناها (تَفَلت في صدرها) عليها والعياذ بالله (تفلت مرة أخرى)، منها لله بت الحرام لِبْسِت الواد ومن ساعـ...

قاطعها كامل بغيظ وحسم غير معتادين منه، أمام "دكتور عزمي" الذي ابتسم من براءة بهية وخبثها...

- استني بس يا حاجَّة، أنا هحكيلَك كل حاجة يا شيخ.

قالها كامل ليخلق من بهية خَلقًا جديدًا، خَلَقها في لحظة "حاجَّة"، وهي لا تعرف عن الكعبة إلا سواد أستارها.

جلس "دكتور" "عزمي" بعدها مع خائف وحدهما، سأله عزمي عن الحُلْمَين الذي صحا منهما مرتجفًا.. يتعجب خائفٌ دائمًا من كلمة "حُلم"!، ما حدث معه وهو نائم حقيقة شَعَر بها، بل هو حق عاشه، عاناه وانتشى منه.

يتذكر خائفٌ جيدًا ليلة انقباضاته الأولى العنيفة التي أرعبت والديه؛ رأى وقتها كائنًا عجيبًا ذا شيء أشبه بالأجنحة، ينظر له بعين قوية تخترقه، ضمه الكائن بقوة، أحس خائف بعظامه تختلج من ضمة قبر، تركه الكائن ذو الأجنحة ثم ضمه مرة أخرى، وأخرى. كأن جسده كُلّه جميعه صار في حجم حبّة الرمال...

أحس خائف بألم وخوف شديدين، ومعه شعور غامض بالأمان، عندما استفاق خائف، كان جسده ينقبض بلا سيطرة منه ويقول:

- "غطيني يا ماما".. أنا خايف".

سأله الدكتور" "عزمي حافظ":

- الكائن اللي حضنك شبه حاجة تعرفها، أو حد شفته، حتى لو في التليفزيون أو كرتون أو حكاية اتحكتلك؟

رد خائف بسرعة أدهشت عزمي.

- لاء خالص.. مفيش.

سكت لحظة.. تَهْتَه لحظتين.. تابع:

- مممم مش عارف.. عينها حسيتها أأأأأأ

تلجلج في كلماته، ارتعشت يداه كمن يتذكر حادثًا خطرًا... أكمل:

- حسيتها عين "دارتي".

سأله عزمي بصوت رخيم هاديء:

- مين "دارتي" يا خايف؟

ينطق دكتور عزمي "دارتي" بنفس طريقة خائف، الألف والراء المفخمتين واستبدال الـ"د" بالـ "ض"، أجاب خائف:

- "دارتي" البقرة صاحبتي.

هذه هي المرة الأولي، ولن تكون الأخيرة التي يقول فيها خائف: "صاحبتي"، كأن خيطا عميقًا لعلاَقة راسخة قد بدأ يربطه بالبقرة "دارتي".

يحاول "دكتور عزمي" إيجاد رابطٍ ما...

"الكائن ذا الأجنحة، ضمة أشبه بضمة قبر، ارتجافات خائف العنيفة، "غَطِّيني يا ماما"، ، جسد طفل عريان يلتهب بالشهوة، طفل يداعب عورته بغرابة أمام أبويه".

شيء ما غامض يركل عقلَ عزمي وقلبه.

***

(١١)

﴿ وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْۚ وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِي ٱلْأٓخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ ﴾

[البقرة: ١٠٢]

يقرفص كامل على ركبتيه موجهًا لبهية مؤخرته في صالة شقتهما الصغيرة، تنظر هي إلى المؤخرة النحيفة بأمل... ينزل كامل رقبته ليدخل رأسه في "طشت" كبير أمامه ويهمس فيه،

يفرك خائف عينه غير مصدق ويبتسم ببلاهة.. يقول لأبيه:

- بابا انت بتعمل ايه؟

أخرج كامل كتيبًا صغيرًا بين رجليه وأخذ يقرأ فيه...

- بابا انت مش بترد ليه، بتعمل ايه؟ كامل؟ يا كـاااااامل؟

يتعمد خائف أن يطيل في كلمة "كـاااااامل" بصوته النحيف ليغيظ أباه، ركبتَا كامل أصابهما الإعياء من وضعهما أمام الطشت على الطبلية. لكن ليس هناك حل آخر، فقد أمره الدكتور"عزمي حافظ" أن يقوم برُقية خائف شرعيًا على ماء بأقصى سرعة...

مضت ساعة كاملة حتى انتهى كامل من قراءة بعض آيات القرءان على الماء، قالت بهية لخائف بحسم:

- قوم بقى اقلع هدومك يا يافا عشان أحَمِّيك.

نظر لها الابن بسخرية... منذ ثلاث سنوات وهي لم تمد يدها لتلامس جسده.. إلا بالضرب! قالت بهية بحسم:

- يالا ادخل جوه الحمام، اقلع هدومك.

ما كان من كامل إلا أن قاطعها:

- مينفعش المية المقري عليها قرآن "تتكب" في الحمَّام يا بهية، حَمِّيه في الصالة هنا.

النظرة في عين خائف لا يمكن وصفها بنجاح، حالة من الحيرة والقلق والغباء يُغَلِّفْهم طبقة رقيقة من السعادة .. يتناقش أبواه أمامه أين يُحَمّيانه وهو بينهما لا "يَخِيط" لسانه أنسجة كلمة واحدة ..

ركض خائف ناحية باب الشقة هروبًا، إلا أن أمه التقطته بسهولة، صرخت به:

- اقلع هدومك يبني ماتتعبنيش.

صارت تتخطف ملابس ابنها من فوق جسده، حتى صار كَيَوم ولادته.. جرجرته وراءها، ثم وضعته داخل "الطشت"..

تصب الماء على جسد خائف وتَدْعَكه، الغريب في الأمر أن خائف بمجرد أن صبت الماء عليه، فتح لها جسده كله... تفعل به ماتشاء... تقرأ بهية ماتحفظه من سور القرآن وتركز على آية السحر التي حفظتها أخيرًا:

﴿ وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ﴾ إلى آخره.

يهز خائف جسده على الجانبين فيبدو كمن يرقص على همساتها القرآنية... تلكزه بقبضتها قائلة:

- أُقَف ثابت.

للحظات يقف ثم يعود إلى تراقصه... يهمس بكلام غير مفهوم... يتحول الهمس فجأة إلى صوت عالٍ:

- شقلطوني في بحر بيرة.. دوغري سكة انتي الأميرة.. في الجمال حلوة وخطيرة.. مش بشوف زيك يا بطة.

تتراقص مؤخرته على جانبيه رافعًا يديه لأعلى يهزهما... ناظرًا إلى أمه بابتسامة ضاحكة مستفزة وبهية تصب عليه من بحار الماء المُكومة في "الطشت"...

تنظر له بغيظ من أثَر رقصه وأغانيه التي "تُشقلط" الآيات القرآنية في رأسها؛ تلكزه لكنه لا يسكت كأنها حالة هستيريا قد أصابته.

- صاحبي مجدع مع البنات.. عندي يقفل تليفونات. الدنيا خربانه في النايتات.. عالدي جي وعَبْي التكيلا.

بلا وعي، تدندن بهية مع خائف في "بحر البيرة" وتغرق فيه.

أخيرا رَفَعَت "خائف" من الطشت كدُمْيَة... ألبسته ملابسه.

خرج "كامل" من غرفته ليُفاجأ بمشهد غريبٍ: بهية أمامه تنظر بغضب ويداها في وِسْطِها، مبلول شعرها وملابسها؛ فتبرز حلمة صدرها وانحناءات جسدها، وخائف أمامها على "الكنبة" مُشبِّكًا يديه بأدب نَبِيّ.

مَشَّط كامل بيسراه شعرات لحيته الرمادية المُشْعَثة، نظرة مختلفة صوبها إلى جسد زوجته التي قالت له:

- روح كُب المية يا كامل.

نظر بحنان إلى وجهها الذي يمتزج به ماء الرقية وماء العرق، انْفَجَر من بئر جسده ماء الشهوة... قال بخبث:

- طب ماتيجي نرَيَّح جوه شوية، أنا تعبان مش قادر.

- يا راجل انت فايق لايه ولا لإيه؟!

لا تعلم بهية لمَ رَدَّت عليه هكذا، برغم أنها في الحقيقة كانت هي نَفْسها فايقة لإيه ولإيه وللكثير من "الإيهات" و"الآهات".

"بِرميل" من الماء المثلج سقط على رأس كامل فجأة. لعنها بداخله. نظر إلى "الطشت" يفكر كيف يتخلص من المياه، فلا يجوز التخلص منها في الحَمَّام، أو أن تدهسه الأقدام.

أمسك الطشت بماءه، نَزَل به الأدوار الخمسة بصعوبة شديدة. تجاه النيل مشى مستنجدًا بأحد "التكاتك".

في هذه الليلة تناوب كامل وبهية بجسدهما المتعب دخول الحمَّام، واحدًا بعد الآخر، فعلا شيئًا لم يفعلاه منذ مدة طويلة... الشيء نفسه، كلٌ منهما على حِدَة.. يا للغرابة!.

***

(١٢)

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ وَٱلۡأُنثَىٰ بِٱلۡأُنثَىٰۚ فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖۗ ذَٰلِكَ تَخۡفِيفٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَرَحۡمَةٞۗ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١٧٨ ﴾

[البقرة: ١٧٨]

فُتح المحضر في السابع عشر من **"مايو" ٢٠١٩**، في الساعة الثانية ظهرًا، بمعرفتنا نحن - وكيل نيابة قسم أول المحلة وحضور سكرتير النيابة-، هذا، وقد ورد إلينا خطاب التحريات الصادر من المباحث، وبالاطلاع عليه ورد فيه أن المجني عليها، وعمرها ثماني سنوات، كانت ترتدي زي مدرسة "لبني" اللون خاص **بمدرسة "رحمات منزلة"**، دقيقة القوام، سمراء الملامح، مجعدة الشعر، وتدعى "**سلمى عبد الحي غريب**"، وأنها قد تعرضت لحادث اصطدام من سيارة.

هذا، وقد أسفرت التحقيقات والتحريات عن عدم معرفة شخص الجاني، فقد قررنا نحن - وكيل نيابة قسم أول المحلة- حفظ المحضر بحالته؛ لحين ظهور دلائل جديدة وأقفل المحضر.

***

على السرير القديم، تُكَور بهية جسدها ناحية الحائط وتولي ظهرَها زوجَها، تخبطه بمؤخرتها خطئًا فتكاد توقعه أرضًا. يخبط مؤخرتها بكفه كأنه يرد الضربة، يسمع "طرقعتها" فيضحك بصوت عالْ.

أمسك السيف البرونزي الصغير، ثم ضغط عليه بقوة شديدة كأنه يقصد أن يُجرَح، فتح يده ليرى جرحا يخُط في يده، وتتفتح الخطوط القديمة؛ لتنسال نقاط الدماء...

في هذه اللحظة امتصت خلايا أنفه كل الرائحة الزيتية مِن شَعْر بهية، ولم يشتم قلبه إلا رائحة الصبية الوردية، تلك الفتاة القمحية

بسُمرة، مُجعدة الشعر بغزارة فيعطي له منظرًا جميلًا...

في حوش المدرسة الكبير، كان يركض معها وحدهما، وفي الفصل الممتليء بخمسة وعشرين تلميذًا جلسا معًا جنبًا إلى جنبٍ دائمًا، يثرثران ويضحكان أمام المدرسين، حتى يتم التفريق بينهما في "التختات".

شارع واحد كان يفصل بين مدرستهما ونادٍ رياضي معروف... بقفزة عالية يكون فوق سور المدرسة الذي يتعدى المترين، يتلقفها، وبقفزة مثلها يكونان داخل النادي يلعبان...

بعد أن يتم اكتشاف غيابهما من المدرسة، من قفاه يُمسك كامل بعنف، وبرقة يمسكون (آمال)، بعصا رفيعة يُضرب ويُرفْد من المدرسة لثلاثة أيام، أما هي؛ فتكون في المدرسة اليوم الذي يليه، تقول له الصغيرة (آمال) برقة بعدها:

- بلاش نطلع تاني برة المدرسة يا "كيمو"، بابا بيضربني جامد.

لكن الصغير كامل لا يكتفي، ألم تكن أرض "الحوش "واسعة فتمكثوا فيه ولا تخرجون؟!

***

فُتِح محضر في الثاني عشر من **"أكتوبر" ١٩٨٤** فى الساعة الثانية ظهرًا بمعرفتنا نحن - وكيل نيابة مدينة نصر وحضور سكرتير النيابة-، هذا، وقد وَرد إلينا خطاب التحريات الصادر من المباحث، وبالاطلاع عليه تبين أن المجني عليها وتبلغ من العمر تسع سنوات،

كانت ترتدي زيًا مدرسيًا "ورديًا" خاص بمدرسة "الرواقية" بمدينة مصر، سمراء البشرة، مجعدة الشعر سوداء العينين، وتُدعى **"آمال موسى عبد الحق حكيم"**، تعرضت لاصطدام من سيارة أدت لوفاتها في غضون دقائق.

هذا، وقد أسفرت التحقيقات عن عدم معرفة شخص الجاني حيث لاذ الجاني بالفرار دون التعرف عليه أو على لوحة السيارة، لذا فقد قررنا نحن - وكيل نيابة مدينة نصر- بحفظ المحضر بحالته، لحين ظهور دلائل جديدة وأقفل المحضر.

***

ينتفض كامل من أثر تقلب بهية العنيف على السرير، يفكر:

تُرى كيف أصبحت آمال اليوم وأين؟ رائحتها التي ميزتها، هل كانت عِطْرًا فرنسيًا أم رائحة جسد ملائكي؟ لكن!! كيف تكون الملائكة سمراء؟! الملائكة يشع نورها أبيضَ، وليس سمارًا!

يضحك كامل بصوت عالٍ من عقله الأحمق.

ينظر لبهية باشمئزازٍ ثم يقوم.

***

ينام خائف على ظهره، نقاط عرق خفيفة تركض على وجهه؛ فيلمع وجهه الأسمر تحت الشمس الحارقة.

يستطيع رؤية كل ما حوله إلا غيمة رمادية في عينه اليمنى.

في البهو الكبير تتناثر مجموعة من الأطفال العُرَاة تمامًا. تتساقط نقاط الدماء من أيديهم، بل تذوب أكفهم " حتى يصبحوا بلا أكف، ثم تذوب الأيادي كاملة.

على يساره دون أن يلف رقبته يرى مجموعة من الأبقار يقومون بالخوار... في آخرهن تقف بقرة تعطي وجهها للحائط، تفتح فمها بشكل عجيب عن الباقين كأنها تصرخ... يتعرف خائف لونها الأسمر النبيذي اللامع... صاحبته "دارتي".

يركض باتجاه "دارتي" بصعوبة متأثرًا بالرائحة النحاسية للدماء، يلصق يده اليمنى بأنفه... يتخبط جسده بأجساد الأطفال العُراة، فيتطاوحون يمينًا ويسارًا بأجساد هشة.

يلمح عشرة رجال خلفه، يلبسون بِدلات سوداء، أمام بوابة طلسمية ضخمة يقفون على شكل دائرة وبينهم شيء أسود، يتشاورون بينهم، واضعين أيديهم عليه كأنه كتاب...

خلفه يرى بنتًا يعرفها.. لا يصدق..

"سلمى".

تميته رائحة دمائها... نزل على ركبتيه متألمًا. يحاول الزحف فتأبى عليه أنفه التقدم.

تقف تجاهه خائفة عارية، يذوب ذراعاها وتتساقط الدماء من جسدها كله، تصرخ بعنف...

يسقط خائف على ظهره من أثر رائحة الدماء، فيشعر بلزوجة الدماء تلامس ظهره العاري. يُغشى عليه فاتحا عينيه.

يجد أباه "كامل" بجانبه واضعًا يده حول كتفه، يطمئنه ويقرأ آيات قرآنية بخشوع... مهلًا! مازال يتذوق الطعم النحاسي للرائحة النفاذة...

يتقيأ خائف فجأة... يهز "كامل" يده لينثر عنها ما التصق بها من مزيج برتقالي اللون(قيء ودماء، تلك الدماء من أثر جرح السيف البرونزي.)

ينظر خائف ليد أبيه برعب... يقول لأبيه بحروف متقطعة وأحبال صوتية مرتعشة:

- اغسل ايدك من الدم..

يرتجف كامل... ينظر لابنه بخوف، يرددها "خائف" بعين جاحظة في يد أبيه وصوت قوي هذه المرة...

- اغسل ايدك من الدم قلتلك.

ركض "كامل" خارج الغرفة مرتجف القدمين، يرى خائف بقع دماء حمراء في قميصه من أثر يد كامل، يخلع القميص ثم يقذف به من الشباك بأقصى قوة.

في الحمّام يغسل كامل جرحه ناظرًا إلى يده بذهول، اتجهت إليه بهية بعدما رأت رجفاته، أمسكت يده المجروحة تقبلها، كم شعرت بالحب له لحظتها؟!، يشعر هو بها كنخلة وحيدة تستند إليها روحه في الحياة... أراد أن يبكي على كتفها.

يتساقط كامل على الكنبة، يرمي دروع رجولته فتتساقط أيضًا أدمعه، يقول لنفسه بصوت مبحوح سمعته بهية:

- شكلك اتجننت على كِبَر يابن الكلب.

(١٣)

﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝٧ ﴾

[البقرة: ٧]

"ذرات الهواء واحدة ورحلاتها كُثُر"

ينفتح الحمام على المطبخ فلا يفصل بينهما إلا ستارة رقيقة بها بعض الخروق الصغيرة؛ من ورائها يرى خائف ظل أمه، وصوتها الأنثوي الخشن يدندن أغنية أو ربما آية غير واضحة بدَلَال واضح...

ينظر خائف خلال أحد خروق الستارة إلى أمه، تلبس عباءة حمراء مفتوحة الصدر؛ فيظهر جزء من صدرها الكبير من تحتها، يتناوب خائف النظر بعينيه الاثنتين خلال الخروق بابتسامة على وجهه، يدخل إصبعه في الخرق بغرابة، يضحك بداخله على إصبعه الذي ينحني داخل الخرق.

يخلع خائف بنطاله، ينظر إلى موطن رجولته الذي تعقدت علاقته به منذ ذاك اليوم العجيب، يتذكر الرجفة التي أصابته بين فخذيه عريانًا، يضع يده بين فخذيه متحسسًا فيرتجف، يسمع صوت أمه العالي قادمًا من المطبخ:

- لسالك بدري على ما تخَلّص "كابنيه" يا "خايف"؟!

قام خائف من فوق قاعدة "الحمّام"، ثم خرج غير ناظر إليها، قالت:

- أنا نازلة السوق اشتري حاجات وبعدين هفوت عالجارة، متعملش شقاوة.

"لا تقلقي يا أماه، لن أعمل شقاوة، فقط أَنْتَقِل إلى الجَنّة بعض الوقت ثم أعود."

في حجرته نام على ظهره، خلع عنه بنطاله وما تحته حتى صار عريانًا تمامًا.

ينظر أسفل جسده، إلى ذلك الشيء الأشبه "ببطارية قَلَم" بين فخذيه... يبتسم.

أهمل بطاريته الذكورية تمامًا. بل حولها صار يتحسس جلده. يرتقي سلم الجنة التي طالما حدثوه عنها في المدرسة، بأصابعه الصغيرة يدعك جلده فيحترق أكثر بنار اللذة... يتمسح بالأرض بظهره تمامًا كما فُعِل به من قبل خلال نومه، ترتفع يده اليمنى، فتداعب حلمة صدره التي صارت أصلب!.

كم تبقى فينا من العقل كي نصدق ما يحدث؟!

ذرات الهواء واحدة ورحلاتها كُثُر!.

ذرّة من الهواء دخلت إلى خائف، تلتصق بأعلى فخذه، تشعر به وتنتشي معه... وبعد لحظة كانت خارج غرفته تكمل رحلتها.

لم يمضِ أكثر من رُبع ساعة حتى كانت داخل قاعة محاضرات بها ما يزيد على عشرين طالبًا، أمامهم "دكتور جامعي" أبيض البشرة ممسكًا سيجارة نصف محروقة في يمناه.. التصقت "الذرّة" بشفته السفلى وتشبثت بها لتستمع إلى معرفته بتركيز.

يسأل الدكتور "عزمي حافظ" طلبته:

- فاكرين المرة اللي فاتت اتكلمنا في ايه؟

يهمهم الطلاب محاولين التذكر... قال أحدهم بصوت مرتفع:

- بُوسة دا... ووااا...اوااا.

يحاول الطالب تذكر باقي الاسم فيتلعثم... يقاطعه عزمي..

- بوسة؟، هي كمان وصلت لبوسة... كفاية عليك كده متكملش.

يضحك الطلاب من صاحب "البوسة" أتم عزمي:

- أنت شكلك لسة نايم وبتحلم.

فيعلق أحد الطلاب بسرعة بديهة..

- وكمان "بوس الواوا" يا دكتور .. واضح أن حلمه "أبيح".

ينفجر الطلاب في الضحك ومعهم عزمي أما الطالب صاحب "البوسة"؛ فيشعر برعشة في ركبتيه متأثرًا بخيال لطيف غير عفيف مع صاحبة "البوسة" و "الواوا" الشهيرة.

تهدأ أصوات الضحكات. فيقول الدكتور "عزمي" بلهجة جادة جَبَّت ما قبلها من "بُوس" :

- اتكلمنا يا أحمد ياللي محتاج بُوسة عن بعض أشكال السِحر اليهودي و"البولسا دي نورا"، والنهاردة هنتكلم عن "التلمود".

تابع الدكتور"عزمي" بعد أخذه نفسًا عميقًا من سيجارته:

- قلنا "البولسا دي نورا"هي لعنة يطلقها بعض حاخامات اليهود على أعدائهم، أول مرة ذُكرت البولسا دي نورا كانت في كتاب مهم جدًا هو كتاب "التلمود".

والتلمود يا أولادي يعتبر تاني أهم الكتب الدينية عند اليهود بعد التوراة.

بترجح الآراء أن كتابته بدأت في القرن الثاني قبل الميلاد، ودامت كتابته مئات الأعوام... ورغم كده بيدَّعي اليهود أنه مُنَزّل من الإله "يهوا" على نبينا موسى عليه السلام، و"يهوا" بالمناسبة هو أحد أسماء الإله عند اليهود.

شاب نحيف في "البنش" الأول رفع يديه ليسأل، فأشار له عزمي علامة السماح، سأل الشاب:

- ازاي يا دكتور الكتاب بدأت كتابته في القرن التاني قبل الميلاد وبيتقال أنه نِزِل على سيدنا موسى؟.

ابتسم عزمي ناظرًا إلى الشاب ذي الملامح الطفولية، قال له عزمي بعد أن سأله عن اسمه:

- عندك حق يا "عبد الله".

بالطبع سيدنا موسى عاش قبل القرن التاني قبل الميلاد بكتير... لكن وقت بداية كتابة التلمود محدش يعرفها بالتحديد، لكننا بنتكلم عن ترجيحات واضحة.

وده أعطى الفرصة لليمينيين والمتطرفين اليهود أنهم يكذبوا كذبة أكبر... (ابتسم بسخرية) لدرجة خلتهم يدّعو أن التلمود جزء من الألواح اللي أعطاها الله لنبيه موسى، وأن التلمود في البداية انتقل شفويًا من موسى لغيره من رجال الدين حتى تمت كتابته على الورق أخيرًا من رجال الدين والحاخامات.

سكت الدكتور"عزمي" لحظة، وجد الشاب ذا الملامح الطفولية ناظرًا بعين شغوف... اكمل:

- ممكن تبان أنها معلومة بسيطة يا "عبدالله"، لكن بالعكس، دي معلومة مهمة جدًا، ده معناه ببساطة أنهم تقريبا بيعتبروا التلمود أكنه جزء من التوراة... حتى معنى كلمة "تلمود" بترسخ عندهم ده.

كلمة تلمود في اللغة العبرية تعني "الشرح"، وده بيعبر بصورة دقيقة عن وظيفته، باختصار جدًا، كتاب التلمود يعتبر شرح للديانة اليهودية وتفصيل لكل الخطوط العريضة الغامضة في التوراة، ودي كتير.

بنظرة خاطفة نظر عزمي إلى أعين الطلاب، ليجد أعينهم ناظرة إليه بشغف، يبتسم بنقاء ويكمل:

- يعني ببساطة، التلمود عند الكثير من اليهود مش زي ماقلنا في الأول ثاني أهم الكتب المقدسة اليهودية، ده يعتبر أهم من من التوراة نفسها.

يعتدل في وقفته بقميصه الأبيض الواسع بعض الشيء، تظهر من تحت ياقة القميص جروح قديمة على الناحية اليمنى لرقبته، يغمض عينيه بأسى فتلسعه ذِكْرَى قديمة... يكمل:

- عشان كدة هنتكلم بشكل مفصل أكتر عنه، التلمود بينقسم من جواه لكتابين، الأول بيسموه "المِشْناه" وهو أصل التلمود وفروع الديانة بشكل عام... والجزء التاني هو"الجِمَارا" وفيها شرح

مفصل "للمشناه" على شكل نقاشات بين حاخامات يهود..

يداعب شاربه الأسود الخفيف، يتابع:

- نقاشات "الجمارا" شائقة جدًا علفكرة.. (يضحك ضحكة غامضة ثم يكمل) بيتبعوا طريقة أفلاطون الرائعة في التعلم، نقاشات جدلية ممتعة، هبقى أجبلكم جزء منها ونتناقش فيه.

أخذ شهيقًا سريعًا، طرده من فمه بصوت مسموع... اكمل الدكتور"عزمي":

- احنا بنقول كده ليه؟ احنا بنتناول ازاي التلمود كتاب مقدس ومهم جدًا عند اليهود، وازاي أنه مليان أكاذيب وسِحر، عشان كده...

علَّق لسانه عن النطق، مشى خطوات في ذلك الفراغ أمام طلبته... السكون في المكان امْتَص كل نغمة يمكن أن تتحرك على شفاه الطلاب... اكمل:

- اللي عايزين نعرفه ياولاد أن أعدائنا هم اليهود وليس الصهاينة كما يدعي البعض، كل من يؤمن بكتاب زي التلمود بما فيه من سحر وأكاذيب؛ فهو عدو غير مأمون.. ممكن بس نستثني بعض اليهود غير المتدينين ممن لا يهتمون بذلك الشر المحض.

سأل طالب متحمس دون أن يرفع يده:

- أنا طول عمري يا دكتور مش بفهم يعني ايه صهاينة، ايه الفرق بينها وبين اليهود؟!.

أعطاهم الدكتور"عزمي" ظهره ناظرًا إلى أعلى نقطة في السبورة، قال بصوت رخيم كأنما يوجه كلامه إلى الهواء:

- مش مهم كلمة صهيونية دلوقتي، كلمة صهيونية كلمة حديثة جدًا، والقرءان بيتكلم من اربعتاشر قرن عن معركتنا مع اليهود مش مع الصهاينة... اليهود هم اللي ربنا قال فيهم:

﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡجِبۡتِ وَٱلطَّٰغُوتِ ﴾ ومعنى "الجبت"هو"السحر"... يعني سيبكم من الكلمات الرنانة زي الصهيونية والماسونية وغيرها، العدو الاساسي هو اليهود، اليهود قوم آمنوا بالسحر من نشأتهم كما قال عنهم الله.

ينظر بهدوء إلى الطلاب تجاهه، يتساءل بصوت مرتفع:

- حد عارف عن الواقعة اللي اليهود فيها سحروا نبينا محمد -عليه الصلاة والسلام-؟

الكلمة عجيبة على آذانهم بل صادمة "سحروا نبينا محمد"، كيف؟ يرفع فقط القليل من الطلاب أيديهم علامة المعرفة، ينطق أحدهم بثقة:

- واقعة لبيد بن الأعصم، يا دكتور.

ابتسم له عزمي ابتسامة مهنئة:

- بالظبط يا "حسن". ودي واقعة ثابتة في البخاري ومسلم والكثير من كتب الحديث.

"لبيد ابن الاعصم" –اليهودي- هو من فعل السحر لنبينا - عليه أفضل صلاة وأتم تسليم- باستخدام شعرات من رأس النبي المُشرَّفة، بعدها دفن السحر في بئر عميقة تدعى "بئر ذروان"،

السِحر ده خلى نبينا محمد - عليه الصلاة والسلام - بيشوف أشياء غير حقيقية لأشهر، ولا يُفَرق في أحيان كثيرة بين ما حدث وما لم يحدث، بين الحقيقة والخيال.

نظر عزمي إلى الطالب "حسن"، عرف بفطنته أن حسن يعرف باقي الواقعة، قال له:

- مُتَذَكر إيه اللي حصل يا حسن؟

- أيوة يا دكتور.

بعدها ربنا أنزل"جبريل" ومعه مَلَكَين فعرفوا النبي أن عليه "سحر" و دلوه على مكان دفن السحر في "بئر ذروان". فالنبي- عليه الصلاة والسلام- طَلّع السِحر من البئر وأبطله.

صارت وقفة عزمي أكثر حِدْة. صوته عصبيًا بعض الشيء. بيسراه مسح الزَبَد الخارج من بين شفتيه... اكمل:

- اليهود أرادوا بده أنهم يهدموا دعوة محمد -عليه الصلاة والسلام- لكن ربنا خيب رجاءهم.

فلم تدل فعلتهم إلا على قدرتهم الفائقة في السحر، وقدرة رب محمد إنه ينجي رسوله... ربنا أنزل ملائكته من سبع سماوات عشان يبلغوا نبيه خطة اليهود الخبيثة، أما نحن، فلا ينجينا الله إلا بعملنا الصالح ومعرفتنا بأساليب سحرهم وخبثهم.

كم تشعر ذرة الهواء بالسعادة والهم معًا من كلام الدكتور "عزمي". يواصل عزمي حديثه، لكنها صارت لا تستمع بنفس الحرص، فَكَّت جسدها عن شفتي عزمي، انتظرت أول زفير قوي من فمه، وانطلقت معه تتطاير بفرحة طفلة أهدى إليها صديق وردة.

يكتنف الغموض مصايرنا، تتقاذفنا خطواتنا البسيطة التلقائية في كل الاتجاهات ظانين أن ذلك الاتجاه هو صناعتنا؛ بل ظانين أن ذلك الاتجاه هو نحن... ربما نحن مثل هذه الذرة من الهواء!.

انقضّت عاصفة هوائية معاكسة، ففوجئت الذرة باتجاهها يتغير للخلف، تركت جسدها تداعبه الرياح... في غضون دقائق كانت تدق نافذته مرة أخرى....."خائف" .

رأته تمامًا كما كان... عريانًا.. متموجًا.. مرتجفًا.. التصقت فورًا بين فخذيه النحيفتين تتشرب كل نقاط اللذة الساخنة.

في أوقات أفراحنا يمضي الوقت سريعًا، في أوقات النشوة لا يمضي الوقت ولا يتوقف أيضًا.. بل يتلاشى تمامًا... النشوة تثبت صحة "اينشتاين" في نسبية الوقت، لكن تثبت خطأه أن هناك ما يُدعى وقتًا من الأساس.

كم مر على خائف من الوقت؟

تغير الكون عند خائف بكونٍ "لا اينشتايني" ليس للوقت فيه وجود، يلامس ملمس الخلود، ماء من عضوه الأنثوي ينطلق فيحتضن قلبه كونه الجديد... ماء غير حقيقي، عضو أنثوي غير حقيقي.

في كونه العادي، كوننا جميعًا، تنظر له بهية... عينها جافة حمراء صار حجمها الضعف. كل ما يُرى يتلاشى أمامها، كل ما يُسمع صَمَت، لم يتبقَ في كونها إلا ابنها خائف ذو التسع سنوات، عريان متموج يلامس جسده وعورته، يهتز بغنج ويصرخ صرخات أنثوية متمتعة، صارت لا ترى ابنها المتغنج، بل تعيشه وتكون فيه.

نزلت على ركبتيها فدبت على الأرض بجسدها الضخم، وضعت يديها على عينيها، لكنها رفعتهما ووضعتهما على أذنيها هربا من صرخات "خائف".

صرخت.. بل مزقت أحبالها الصوتية، سمع خائف صرختها تأتيه من كونه القديم.

يحاول رفع قامته للوقوف، لكن في تلك اللحظة أتت رعشته الأخيرة، تنتفض أطرافه وهو يحاول رَفْع جزئه العلوي عن الأرض .

ذرة الهواء المتشبثة بين فخذيه تتطاير من رعشاته لتستقر على صدر "جلابية" بهية القديمة؛ تشعر ببلل دموعها التي تنسال مغرقة "الجلابية".

أخيرًا، يمشي خائف بخطى مهتزة تأثرًا ببقايا كونه "اللا اينشتايني"، كيف يستطيع طفل صغير تحمل هذه المشاعر التي تغتصب طفولته الآن؟ في هذه اللحظة صار قلبه حياة بكاملها، حياة تُعاش لعشرات السنين...

"خيبة.. لذة.. خوف.. حب.... شقاء.. جنون.. حُمق.. صراخ.. أمل.. موت... ألم.."

(١٤)

﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾

[البقرة: ٧٤]

على بعد مئتي كيلومترًا، عائدًا كامل من أسيوط يقود "سيارته النقل"، ليست سيارته الخاصة بل السيارة التي يعمل عليها.

في سنواته الأخيرة، عندما يشعر "كامل" بخيالات من مضوا تتعرّى أمامه لتغويه، يضغط بأنامل يديه أعلى قفاه بقوة ويسحب نفسًا شديدًا، بشكل غامض يشعر بعدها كأنه رجل بلا ماضٍ فتَتَفَتَّح ابتسامة على وجهه، يبدو أن هناك "زرًا أحمر" في مخه تحت هذه النقطة (أعلى قفاه).

يتذكرها... تُرى أين أنت الآن يا "آمال"؟ هل تزوجْتِ؟

فَكَر كامل:

هل كان من الممكن أن يكون هو سارق "آمال" بين الرجال جميعًا؟!

يتذكر زوجته بهية التي تركها نائمة تسرق منه السرير جميعه إلا ركنًا صغيرًا... يضحك بقسوة.

يمرر يده إلى الوراء محاولًا أن يضغط على زِره الأحمر، أحس أن الزر تعطل تمامًا، ربما خَرِب بتأثير عوامل الزمن أو لعدم مداومة كامل على صيانته، يصرخ ويخبط على "مقود" السيارة بيمناه، السياره تهتز تحته، الطريق ينحني في الاتجاهين كثعبان... بعد ذلك يعتصره ألم شديد في جانب رأسه الأيسر.

يستفيق من ذاكرته الملعونة على سيارته تكاد تصطدم بصخور جانبية، يداه الاثنتان يحاولان التحكم في المقْوَد، وقدمه تضغط الفرامل بهدوء خبير.

- "أصل الاسطى كامل اسطى قد الدنيا"... هكذا يقول عنه من يعرفون قيادته.

ارتاحت قاطرته وسط الطريق... تسمع أذنه الخارجية فقط صوت اصطدام من الخلف، وهزة طفيفة في مقطورته، ثم تهدأ سيارته تمامًا، بضع "خبطات" متلاحقة يسمعها بلا وعي، ثم صوت صفيرٍ عالٍ يمزق الخبطات ويتوحد معها.

عندما ذهب كامل صغيرًا "لفِيلَّا" صديقته آمال، كان ما يزال في العاشرة من عمره، دَق باب "الفيلا" الداخلي بعد تسلق السور الخارجي، يفتح له أخوها.

- أنا عايز اطمن على آمال.

قالها الصغير "كامل" منذ خمسة وثلاثين عامًا، بعد حادثة السيارة أمام المدرسة ببضعة أيام... أمسك "صالح موسى" -الذي كان يدرس في كلية الطب- بقميصه المدرسي، رجع خطوتين إلى داخل "الفيلا" ساحبًا الصغير كامل معه، تحك قدماه الأرض، ثم بقوة طوحه في الهواء، ليسقط بقوة على الرخام، ينظر الصغير كامل في ذهول، لا يعي ما يحدث!.

في لحظة، كان أخو صالح، "صلاح موسى" يضرب وجه كامل وجسده بكل ما أوتي من أطراف، أمسك صلاح موسى بياقة قميصه وجرجره خلفه حتى وصل للباب الخارجي "للفيلا". قال بهدوء:

- لو شفتك هنا تاني هقتلك يابن الل..ة

قذف به على الأرض، ودون أن يفتح البوابة، رَكَلَه رَكْلَة تِلو الأخرى، يتصارع كامل مع العمود الأسفل العرضي لحديد البوابة، وينغرس فيه بجسده؛ فلا يستطيع الفكاك... استطاعت أخيرًا ركلات الشاب "صلاح موسى" أن تخرجه من تحت البوابة بجروح كثيره في الوجه والجسد، وأنف أصبح كقطعة لحم ممضوغة.

تلتقط أذن كامل "كلكس" مزعج لسيارة خلفه، يفتح عينيه ليفاجأ بأنه في نفس الرحلة من "أسيوط" إلى القاهرة، يشعر بألم شديد في رأسه، ودماء تتصبب على جانب رأسه الأيسر، ربما مازال متأثرًا بآثار اصطدام رأسه وهو طفل بحديد بوابة "الفيلا"!!

***

يصل كامل إلى بيته بعد منتصف الليل، يقول لامرأته:

- أنا هدخل استحمى يا بهية.

- مش وقته يا كامل، عايزه اتكلم معاك.

قالتها بهية برقة، هَم هو بالاعتراض فتحولت بهية من حالة الرقة إلى حالة الشدة في لحظة:

- مانت طول عمرك مابتستحماش بعد ماتيجي، ماحبكتش النهاردة.

لا تعرف بهية من أين تبدأ حديثها، ما الكلمة العجيبة التي تصلح لأن تبدأ بها كلامها..."الكلمة البادئة".

"خايفة"... هي الكلمة التي بحثت عنها بهية لتبدأ بها، قالت بلسان عصبي مرتعش:

- خايفة أوي، مش عارفة اعمل ايه، مستنياك من الصبح، الواد خايف هيروح يا كامل.

صارت الدموع في قلب بهية تمهد طريقًا للخروج، اكملت:

- دخلت على خايف لقيته بيلعب في نفسه زي النسوان يا كامل وبيصَرَّخ.

فجرت دموعها السدود الموضوعة أمامها فانهمرت... أتمت:

- انت مش ممكن تتخيل اللي شفته... خايف ضاع.

- اهدي بس يا حبيبتي... فهميني ايه اللي حصل؟.

بعدها دخل كامل غرفة خائف، يبحث هو أيضا عن "الكلمة

البادئة"، لكن خائف نظر إليه بحدة ثم وضع يده على أنفه، وعلى وجهه علامات التقزز، قال لأبيه بغرابة:

- اطلع بره واقفل الباب.

ذُهل كامل، وجد نفسه يرجع للخلف ويغلق الباب، عندها، سمع خائف يكمل بصوت عالٍ:

- وامسح الدم اللي على وشك...

يهتز كامل بقوة.

***

(١٥)

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ ﴾

[البقرة: ١١]

قال "الباشمهندس" "موسى حكيم" إلى محاميه:

- كل حاجة بتحصل لسبب وأي سبب ليه مسئول والمسئول لازم يتحاسب.

قلبه يتمزق على ابنته، يحبس الدموع في عينيه بقوة "مُوسويّة"... رد محاميه:

- أنا عارف ان ده مبدأك يا باشمهندس، احنا بندور على سواق العربية اللي داسها وهنلاقيه.

وجه موسى حكيم ينثر جمرًا، اختلط اللون الأسمر لبشرته بلون أحمر فصار لونه غريبًا أشبه بالكائنات الفضائية في الأفلام.

موسى حكيم رجل بسيط من إحدى قرى المحلة، أو بالأصح كان بسيطا ولم يعد... دخل كلية الهندسة في عمر التاسعة عشر، يحلم ببيت وسيارة وامرأة كالفتاة الرقيقة في فيلم "إشاعة حب"، لم يكن له إلا هذه الأحلام الشخصية الصغيرة بعدما تحققت أحلام الوطن - بحمد الله- بعد ميلاده باثنى عشر عامًا.

منذ عامه الأول في كلية الهندسة، كان مبدأه أن كل شيء له سبب والمُسبب يجب أن يكافأ أو يُعاقب، ربما كانت هذه وسيلته للتصالح مع الإله.

ربما أيضا هذه النظرة العلمية إلى الحياة هي ما أوصلت موسى حكيم إلى حلم كل رجل من قريته، قرية "ميت البقر"، السيارة والبيت وشبيهة سعاد حسني، طالما تمنى أن تكون هي سعاد حسني "بوركها" و"صدرها".

الحقيقة أني نسيت القول، أو ربما تناسيت، أن بجانب السيارة والبيت وشبيهة سعاد حسني، أشياءً أخرى بسيطة جمعها "موسى حكيم" في حياته، منها المقعد الدائم في البرلمان إلا دورة عام ألفين واثني عشر(٢٠١٢)، جمع أيضًا عددًا قليلًا من مليارات الجنيهات، بضعة عقارات قليلة منثورة هنا وهناك، انحناءات تتناثر في الأجساد حوله أينما ذهب، أشياء بسيطة لم تغير "موسى" بالمرة.

أتصور أن يكون قارئي فهم خطأً أن موسى حكيم لا يحب امرأته، ربما أكون أسأت اختيار الكلمات، لكنه أحبها كثيرًا بمجرد أن تعودها... حتى إنه بعد زواجه منها بمدة، قابل "سعاد حسني" في حفل كبير يضم سياسيين وفنانين، تحدث معها ويا للعجب لم يشعر بأنه يريد قطع وَرَقَة زوجته "هانم" من كتابه ولصق ورقة سعاد و"وِرْكها"..

فقرر بقوة "موسوية" ذلك اليوم أنه سيحب "هانم" جدًا، ولا عزاء لك يا "سعاد".

من جهتها هي، لم يكن موسى حكيم يشبه أحدًا من الفنانين؛ فليس هناك فنانٌ أسمرُ الوجه غليظ الشفتين، وتزين خدّه الأيمن بقع سوداء قبيحة... ولكن هانم أحبته وسعدت به كثيرًا، باختصار: تمسكت به تمسك قطة أصيلة بصاحبها.

عندما ذهب موسى حكيم لمقابلة أبيها "عصمت باشا" في شقتهم الجميلة، جلسا معًا في الصالون الذهبي، نظرت لهما والدة "هانم" من وراء ستارة أنيقة، قالت لابنتها:

- إيه اللي انتي جايباه ده يا "هانم"؟ مش شايفة شكله وهو جنب باباكي زي البومة؟.

الحقيقة أن الأم لم تخطيء عيناها، فموسى بملامحه الغريبة، وبقعه السوداء كان مشهده عجيبًا بجانب منظر عصمت "البشواتي" صاحب العينين "العسليتين"، والشعر الحريري اللامع بقدرة الله أو قدرة "الكِريم" ؟!

- انتي اتجننتي يابنت؟، ده شاب صايع مش هجوزهولك.

قالها الأب بغضب، نسي فقط أن موسى لم يكن "صايع"، بل مهندس تنشق له الصخور في عمله، فيمر بينها ويتهشم كل فرعون يركض خلفه.

- أنا هتجوز موسى، الشكل مش أهم حاجة، أنا بحبه وشايفاه أحلى راجل في الدنيا.

كادت امرأة "عصمت باشا" -سابقًا- أن تُجن من كلام ابنتها الساذج:

- انتي بنت مجنونة، مشيك ورا "عبد الحليم" وشوية المطربين المجانين طيروا عقلك.

لم تلحظ الأم الساذجة أن "عبد الحليم حافظ" ليس هو من أشار لقلب ابنتها "هانم" إلى موسى. ربما "إسماعيل ياسين" الذي كانت تحبه "هانم" هو من أشار لها.

صارعت "هانم" أهلها كثيرًا، ربما لم يحدث بين موسى وهانم خلاف واحد طوال المدة "الجِنانية" الأولى. قررت أن تخطو على

كل حزن قابلها في حياتها لتصل إلى سعادة انتظرتها كثيرًا.

لم تقابلها إلا مشكلة واحدة هي شكل "الكوشة".. صممت على تغيير شكل "الكوشة" لتجلس على يسار موسى حكيم (بعكس المألوف).

حاولت صديقاتها أن يُثْنِينها عن قرارها العجيب، فلم ترجع، قالت لموسى حكيم:

- حبيبي انا نفسي نبقى مختلفين عن غيرنا في كل حاجة، ايه رأيك لو نبقى مميزين حتى في الكوشة؟!

فهم موسى حكيم مقصدها جيدًا، إنها تريد أن تجلس بجوار خده الأيسر عديم البقع السوداء، أجابها بهدوء:

- مش مهم الاختلاف في حد ذاته.. شمال يمين كله واحد يا عمري.

ذلك الحب الذي يتهادى بينهما، "حبيبي" و "عمري" هو ما ساعد على حل المشكلة بعد أسبوعين من المفاوضات بين "هانم" و"موسى" ملك المفاوضات".

في الكوشة جلسا معًا، عروسين جميلين، بذلك التكامل الجميل بين الأبيض والأسود (الفستان والبِدله)، يجلس موسى مبتسمًا لالتقاط صور، وعلى يساره(بعكس المألوف) تجلس هي. ينفتح فستانها وفمها على آخرهما وصوت ضحكتها وضحكة موسى معًا يرنان ويتناغمان بشكل جميل.

(١٦)

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾ ﴾

[البقرة: ٢٦٠]

على السبورة الخضراء مكتوب "بسم الله الرحمن الرحيم" في الأعلى، تحتها مرسومة "النجمة اليهودية السداسية" وحولها إشارات كثيرة وأسهم، يلتفت عزمي للسبورة خلفه فتقع عيناه عليهما. يهمس بصوت خفيض:

- لعنة الله عليهم جميعًا.

ثم يقول بصوت عالٍ:

- احنا النهاردة هناخد المحاضرة بره.. ايه رأيكم؟

خرج عزمي وراءه طلابه هربًا من قاعة محاضرات مكتومة بالأتربة وسبورة باتت ليلتها في صراع بين "البَسْمَلَة" الإسلامية والنجمة اليهودية.

في الحديقة أمام المبني القديم بجامعة الأزهر، طلب من طلابه الجلوس ثم جلس أمامهم، تحاول الشمس النفاذ إلى أدمغتهم من خلال شجر كثيف يمنعها بصرامة.

عقله منشغل بما قاله "كامل" و"بهية" وابنهما أمس.. ممسكًا منديلًا بيمناه ماسحًا كل نقاط العرق المتسارعة على وجهه.

تستطيع أشعة الشمس أخيرًا اختراق الأشجار لتلتحم بوجه عزمي وعينه، يغلق عينيه من الألم فيتخيل "خائف" متموجًا، مداعبا نَفْسه، مثلما حكى له كامل أمس، جلس مع خائف أيضا يسأله عما حدث، حكي له خائف، لم يخف أو يجبن، سأله الدكتور "عزمي":

- طب ايه اللي كنت بتعمله لما ماما دخلت عليك لقيتك نايم

عالأرض يا "خائف"؟.

مط الطفل شفته السفلى ولم يرد... اكمل عزمي:

- يعني انت كنت حاسس أن فيه حاجة أو حد بيجبرك على كده؟!

- مش عارف بس ببقي حلو، ومبسوط.

- بيجيلك نفس الإحساس اللي جالك في الحلم؟

امتعض خائف، قال بحسم غريب على عمره واسمه:

- أنا مابحلمش.

مازال ضوء الشمس في أحد أروقة الجامعة يداعب عيني عزمي المغمضة... يوقظه أحد الطلبة:

- دكتور عزمي!! دكتور عزمي!! انت هنا!!

يفتح عزمي عينيه... يطرد زفيرًا بعنف كأنما يطرد معه "خائفً" من أعماقه. قال بحماسة مفاجئة:

- اتكلمنا عن ايه المرة السابقة يا اولادي.

وقبل أن يرد أحد من الطلاب، اكمل:

- هنتكلم النهاردة عن "الكابالا" و لو فيه وقت هنتكلم بردو عن "كتاب الخليقة" أو ما يطلق عليه "سفر اليتزيرا".

يلهث الدكتور"عزمي" من أثر الحرارة الشديدة، لكنه عندما بدأ حديثه عن التراث اليهودي هدأ نَفَسه، فصار سلسًا كمرور الدماء في أوردة طفل صحيح البدن، قال بابتسامة:

- حد يعرف أي حاجة عن أي حاجة قلتها دلوقت ؟!

تتوزع الابتسامات والضحكات على أوجه الطلبة، قال عزمي بابتسامة:

- "الكابالا"... "كتاب الخليقة".. "سفر اليتزيرا".. مفيش حاجة خالص؟!!!

ازدادت الضحكات في أعين الطلاب... اكمل:

- مش مهم.

ثم انفجر ضاحكًا هو الآخر قائلًا:

- انتو متأكدين انكم بتدرسوا عبري؟!

اكمل:

- ثالث ركن في الثالوث المقدس عند اليهود هو "الكابالا".

يعني الأركان الثلاثة بترتيب الأقدمية هم "التوراة المحرفة"، "التلمود"، و"الكابالا"...

باختصار علم "الكابالا" عند اليهود بشكل رسمي هو علم التواصل مع الإله، وهو علم خفي عن العامة زي كده التصوف عندنا.

لكن بشكل حقيقي وخفي، "الكابالا" هو أساس كل السحر اليهودي، وفيه بيتم ربط الحروف العبرية للفظ "الإله" بأرقام وأحرف معينة، عشان يقوموا ببعض الأعمال السحرية الشيطانية، حاخامات اليهود ورجال الدين بيؤمنوا أنهم بيستعينوا بالإله؛ لكنهم

بيستعينوا فقط بإبليس وأعوانه...

يصمت لحظات ثم فجأة يغرد آية قرآنية بصوت ملائكي:

- ﴿ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ١٤ وَذَكَرَ ٱسۡمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ١٥ بَلۡ تُؤۡثِرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ١٦ وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ ١٧ إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلۡأُولَىٰ ١٨ صُحُفِ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ١٩ ﴾

بعدها سأل بصوت عادي؟

- حد يعرف إيه هي صحف إبراهيم؟

أجاب أحد الطلاب بعد تهتهة:

- ممكن يكون كتاب سماوي زي التوراة يا دكتور.

يهز عزمي رأسه بشكل عشوائي، يقول:

- في الواقع محدش يعرف بشكل مؤكد ايه هي صحف إبراهيم، غالبية الفقهاء بيرجحوا أنها تكون صحف فيها بعض المواعظ والإرشادات الإلهية لكن مفيهاش تشريع.

يتمشي بهدوء وفي فمه سيجارة مصرية محاط بدخانها، ثم يقول فجأة بصوت عالٍ مسرحي:

- بس ولاد عمنا لهم رأي آخر.

اليهود عندهم كتاب صغير في منتهى الأهمية اسمه "كتاب الخليقة" أو "سفر يتزيرا".

حاخامات اليهود بيدّعوا أن الكتاب ده هو صحف إبراهيم، وأن ربنا أحيا الموتى لإبراهيم، وبعدها فِضِل إبراهيم بيكتب اللي ربنا عمله لإحياء الموتى، وساب الكتاب ده ميراث لحاخامات اليهود وسماه كتاب "الخليقة" أو "سفر يتزيرا".

الكتاب ده بيُعد من أساسيات علم "الكابالا".

اكمل عزمي بعد أن تمكنت منه الحماسة تمامًا، صار شعره الناعم يتطاير بخفة من حركة رأسه؛ مثل أنور وجدي قديمًا، سأل سؤالًا:

- هل ده متماشي مع ديننا إن إبراهيم أحيا الموتى أو رأى الله وهو يحيي الموتى؟!

- لا طبعا يا دكتور، ده كفر.

جاءت هذه الإجابة الطائشة من أحد الطلاب، زجره طالبان آخران، هَمّ الطالب الأول بالرد، ضحك عزمي من معركة تكاد تبدأ بين الطلاب، قال بنبرة عميقة وهو يكمل تغريده القرآني:

- ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾ ﴾

انتهى عزمي من ترتيله القرآني واكمل:

- "صرهن إليك" بمعني "قَطِّع الطير لأجزاء"..

إذن، يا أولادي:

الثابت أن ربنا أمر إبراهيم بذبح الطير وتقطيعه ثم أحياه سبحانه بقدرته لإبراهيم، لكن من غير المرجح أن ربنا يعلّم إبراهيم طريقة إحياء الموتى أو حتى في تلك الحالة أن إبراهيم يكتب تلك الطريقة الربانية؛ ويتوارثها حاخامات اليهود.

يضحك "الدكتور" عزمي بسخرية، أما الطلاب، فتكاد أعينهم تترك أدمغتهم لتجلس أمامه، يكمل عزمي بطريقته الشائقة:

- يبقي السؤال:

هل إحياء الموتى عن طريق الكتاب الشيطاني ده حقيقة ولّا مجرد ضلالات يهودية؟!

وقف تمامًا عن مشيه ثم ضرب بسبابته على جبينه كأنما يبحث هو نفسه عن إجابة السؤال!؛ لم يفتح أي من الطلاب فاهًا... لكن عزمي قال هذه المرة بحسم:

- عايز أسمع إجابات على السؤال، فين تفكيركم وعقولكم، واطمئنوا.. أنا لا بكَفَّر ولا بتريق.

قال أحد الطلبة بحماسة قاسية:

- لا يحيي الموتى إلا الله يا دكتور، ربنا بيقول ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ ﴾ .

فابتسم عزمي للطالب ثم قال بهدوءه المعتاد:

- صدق الله العظيم، في سورة الحج، لكن الآية بتثبت طلاقة قدرة الله لكن لا تثبت الاختصاص ، يعني ببساطة مابتثبتش أن الله وحده هو اللي بيحيي الموتى.

نظر أغلب الطلاب إلى عزمي بدهشة غاضبة أما الطالب الواقف أمام عزمي، فقال بحنق وصوت عالٍ:

- ازاي بس يا دكتور؟!

- اهدى بس يابني، احنا من الأول قلنا لا نحتد ولا نكفر.

أخذ "الدكتور"عزمي لحظة ليفكر ثم اكمل:

- من الثابت في ديننا أن سيدنا عيسي عليه السلام أحيا الموتى فلِيه ميكونش غيره بيحيي الموتى مثله؟!

رد الطالب بأحرف غاضبة:

- ربنا بيقول:

﴿ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ ده على لسان سيدنا عيسى يا دكتور .. الله يفعلها لنبي لكن مش لأعدائه اليهود.

- صدقت يا بُنَي .. يعني احنا متفقين أن عيسي هو اللي أحيا الموتى (سكت ثانية ثم اكمل) لكن بإذن الله.

يُسمع صوت أنفاس عزمي التي كانت هادئة منذ دقائق، يكمل:

- إِذْن الله في إحياء الموتى هبة، ونعمة من الخالق -عز وجل- ، وأغلب نعم الخالق التي أتاها أنبياءه آتى منها أيضًا أعداءه للابتلاء، تأمل حولك وسترى.

يرتفع صدر الطالب ويهبط بغيظ كأنه يريد أن يفجر قنبلة في جسد عزمي؛ ويفجر أخرى في عقله هو شخصيًا ليكف عن التفكير، يكمل عزمي:

- ربنا يؤتي الباطل أحيانًا ما لا يؤتي الحق، تأمل حال المسلمين اليوم !!.

ربنا آتي سحرة فرعون بمعجزة السحر لسنين قبل أن يؤتي موسى معجزته الكبرى،

الله قدَّر للجان الاستماع لأخبار السماء قبل بعثة سيدنا محمد- صلى الله عليه وسلم -، الأشرار والأخيار معًا.

ربنا سيؤتي المسيح الدجال ما لم يؤتِ أحدًا من الأخيار، أو ربما قد أتاه بالفعل ولا نعلم.

مذكور في صحيح البخاري ومسلم على لسان النبي -عليه الصلاة والسلام- أن الله يخرج رجلًا من خيار الناس يقول للمسيح الدجال:

"أشهد أنك الدجال الذي حدثنا عنه رسول الله "

فيقول الدجال للناس:

"ارأيتم إن قتلت هذا ثم أحييته هل تشكون في الأمر؟!"

فيقولون: "لا."

فيقتله الدجال ثم يحييه، فيقول الرجل حين يحييه الدجال: (لاحظ يا بني: حين يحييه)

يقول الرجل : "والله ما كنت قط أشد بصيرة مني اليوم"..

هل ده إذن من الله بإحياء الموتى للمسيح الدجال، وهو عدو الله وشر عباده؟!

أخذ نفسًا عميقًا من سيجارته وفكرته معًا، صمت ثواني كثيرة ربما ليستريح، اكمل:

- الاستنساخ! هل هو حقيقي؟! هل يمكن أن يحدث لبشر ما حدث لحيوان؟!، هل هو إحياء للموتى بإذن الله؟! أم هي عملية أشبه بالولادة لها روح مستقلة؟!.

ينظر عزمي إلى أعين الطلاب التي تلتهب حيرة وخوفًا، و رقابهم المثبتة عليه بلا حَراك.. يشعر بزهو غادر، يستعيذ بالله على إثره من الكِبْر ثم يقول:

- أشوفكم على خير المحاضرة الجاية.

***

(١٧)

﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَأْتُمْ فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾﴾

[البقرة: ٧٢]

جريمة كاملة في وضح النهار، منذ بضعة أشهر، في شهر أبريل بترابه الثائر.

أمام الكثير من البشر، لا، لم تكن أمامهم.. بل خلفهم.

تتجه أوجه التلاميذ للبوابة الطلسمية المدرسية.. أراد "موسى حكيم" - مالك المدرسة- أن يميز مدرسته فجعل لها بوابة ضخمة سوداء، على يسار البوابة صفان من العجول والأبقار... وجوههم في حائط عالٍ أمامهم..لا يرونه وبرغم ذلك يخيفهم، فالأبقار نظرًا لمكان عينيها على جانبي وجهها ترى للغرابة كل الصورة في الأمام والخلف، إلا بقعة صغيرة أمام أعينها وزاوية ضيقة خلفها.

في وسط الحوش، تقف طفلة صغيرة أمام مدرس قصير القامة، ترتعش الطفلة بجسدها الرقيق من الخوف.

يصرخ المدرس في صفوف التلاميذ:

- للخلف انظر.

تستدير الأطفال لتعطي ظهورها لباب المدرسة الطلسمي والطفلة والمُدَرِّس.

يد المدرس الغليظة العَرِقة ارتفعت إلى أعلى، لتنزل على وجه الطفلة، فتنفتح نافورة دماء من شفتيها، يقول المدرس بصوته الضخم:

- كلكم باصين قدامكم زي ما قلنا... اللي هيبص وراه هعجنه تحت رجلي من الضرب.

لم يكن الأستاذ "علام العبد" قاسيًا بنفس الدرجة مع لأولاد، ربما لإحساسه أن البنات "بتدلع" أو لثقته بأن الأولاد رجال الغد يجب ألا يهانوا بهذه الطريقة.

لذا أحب الأطفال الذكور "أستاذ علام العبد" بخفة ظله الشديدة، وحقيقة أيضًا، أحبه الكثير من البنات، ربما كانت قسوته قشرة خارجية تخبيء وراءها كِيان آخر.. مدرس قصير القامة جدًا حتى يقارب طوله طول التلاميذ في الصف السادس الابتدائي، لكنه عريض بشكل كبير، فيبدو كصندوق كبير يمشي على الأرض، يلاعب الأطفال، يداعبهم، يضحك معهم، يسخر منهم.

كانت صفْعَته على خد الطفلة أقسى من كل صفعاته السابقة، لم تصرخ الفتاة، ربما لمعرفتها أن الصرخة ستسحب صفعات أخرى مثلما يسحب حمار عربة.

لم تصرخ الفتاة ولم يسحب الحمار العربة، وإنما سقطت العربة بحمارها بالفتاة، احمرَّ خدها بلون الدم والخوف.

رياح أبريل الترابية تهب من كل جانب فيتطاير قليل من شعور الفتيات رقصًا والأخريات مرتاحات تحت حجابها، تتطاير دمعتان من خد الفتاة لتلتصقا بشفاة "أستاذ علام العبد"، يلحسهما بلسانه.

يرفع قدمه للأعلى، يركل الطفلة بقوة شديدة، تطير في الهواء مثل "جيبتها الكحلي"، بألم عنيف بين فخذيها وفي بطنها تشعر، تسقط.

لم تأتي "سلمى" إلى المدرسة اليوم كطفلة، بل ك "آنسة" كبيرة تلَبس الخاتم الذي أهداه إليها صديقها "كريم" في عيد ميلادها بالأمس، قال لها كريم بابتسامة:

- أنا جبتلك ده من مصروفي يا سلمى، بخمسين جنيه، بقالي كتير بحَوِش عشان أجبهولِك، كل سنة ونتي طيبة...

ليست كل الـ"كل سنة ونتي طيبة" واحدة، بل شعرت وقتها بأنها ستكون طيبة كل سنة كما تمنى صديقها كريم...

بعد رَكْلَة "أستاذ علام العبد"، دخلت الفتاة كونًا "لا اينشتايني" ليس للوقت فيه من وجود، احتضنتها الذكريات بوجع ورحمة: أخيها الرضيع... أبيها الطيب القاسي الحاج "عبد الحي غريب".. أمها الحبيبة.. صفعة مُدَرِّسة.. طالما كَرِهت المَدْرَسة، لم يهون عليها إلا صديقتها "سلمى" الأخرى وصديقها كريم...

اليوم عرفَت كل شيء، وتأكدت أن ليست كل سنة وهي طيبة.

ارتمت على ظهرها، تفتح عينيها ناظرة بضعف إلى الخاتم في إصبعها، تُكَوِّر يدها الصغيرة بدقة، وتحفر لتزيح القليل من الرمال.. تتوجع، تكررها وتحفر، تمد الفتاة يمناها لتضع شيئًا في الحفرة الصغيرة، تبتسم في هدوء وألم.

ليس الموت واحدًا!.

مغطى وجه الفتاة بالدماء، وبين قدميها يتحول "سروالها" الأبيض إلى اللون الأحمر، "جيبتها الكحلي" مرفوعة عنها ومبتعدة عن الدماء كأنما تفر من الجريمة.

الأبقار على يسارها تهتز بعنف، تخور كل الأبقار بصوت عالٍ وتعوي إلا واحدة، تلك البقرة السمراء النبيذية في آخر الصف، يصرخ علام العبد:

- محدش يبص وراه يا ولاد القح...

ثم يسقط على ركبتيه، يئن ويصدر صوتًا مخيفًا من الألم.. الدموع التي كانت في عين الفتاة توقفت، بل كأنها انتقلت هي نفسها إلى عين علام العبد، فتتساقط بشدة على خده ثم يطيح بها الهواء المجنون بعيدًا.

يبدأ القليل من الأطفال الاستدارة ناظرين إلى المُدرِّس، يعيدها علام العبد:

- كله يبص قدامه يا كلاب، اللي هيبص وراه هموته...

يسلط الأطفال نظرهم فورًا على المبني الرئيس أمامهم -مبنى رمادي اللون-، مدخله واسع، يتدافع فيه التلاميذ كل يوم صباحًا، فوق المدخل مكتوب بخط أسود جميل.

﴿ يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖۚ ﴾

ممسوح بدهان أسود مقطع"الذين آمنوا منكم" وكلمة "العلم" من الآية، تحت آثار عقل تلميذ شرير أراد تغيير معنى الآية لتصبح:

"يرفع الله الذين أوتوا درجات".

بجسده الطويل القوي وبشرته البيضاء النقية، يأتي مدير المدرسة الشرفي صلاح موسى، يقف أمام جسد الفتاة، وعلام العبد

المُلقيين على الأرض بجانب بعضهما.

يدور بجسده موجهًا نظرة دائرية للحوش، ينحني ليلتقط الطفلة بين يديه ويجري بها خارجًا من البوابة الطلسمية السوداء.

يتجه مرة أخرى إلى علام العبد، يلطمه على خده، لطمة شبيهة تمامًا بلطمة علام العبد للطفلة... لكنها لطمة كافية لإفاقة إنسان وليس لقتله.

- اطلع اقعد دلوقت في مكتبي يا "علام" وماتتحركش منه.

***

(١٨)

﴿فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ يَكۡتُبُونَ ٱلۡكِتَٰبَ بِأَيۡدِيهِمۡ ثُمَّ
يَقُولُونَ هَٰذَا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشۡتَرُواْ بِهِۦ ثَمَنٗا
قَلِيلٗاۖ فَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَوَيۡلٞ
لَّهُم مِّمَّا يَكۡسِبُونَ ٧٩﴾

[البقرة: ٧٩]

بابتسامة، يقف "الدكتور" عزمي حافظ أمام طلبته، يقول بصوت أبوي ودود:

- فيه شباب كتير جات سألتني عن اللي اتكلمنا فيه المرة اللي فاتت، اللي عايزكم تعرفوه إني ماقصدش هنا أنكم تؤمنوا باللي بقوله، لكني أقصد العكس تمامًا،

إنكم لا تؤمنوا باللي بقوله. "سكت لحظة ثم اكمل" باللي بقوله كرأي وليس ثابتًا في الدين، لكن فكروا انتوا واخلقوا لنفسكم فكركم الخاص.

اكمل:

بالرغم من كل اللي قلناه المرة اللي فاتت، أنا مش بؤمن أن اليهود أو أحد في وقتنا الحالي قادر على إحياء الموتى، أنا حبيت بس أن احنا نفكر مع بعض شوية.

ضحك عزمي فضحك جميع الطلاب وراءه كأنهم اطمأنوا بعد أن كادت تُخلع قلوبهم.

نظر عزمي إلى ساعته ذات العقارب الفضية، قال:

- شايفكم اطمنتم وضحكتم... (سكت لبرهة قصيرة ثم اكمل) نرجع بقى لنفس قلق المحاضرة اللي فاتت...

ضحك ضحكة عالية فما ضحك أحد من الطلبة هذه المرة، اكمل:

- هنتكلم دلوقت عن مفهوم مهم جدًا شغل البشر من ساعة ما ربنا "خلقهم"، هي دي الكلمة اللي أقصدها... "خَلَقهم"..

الإنسان من القدم بيتشبه بخالقه، وأهم سمة ميزت الإله هي الخلق.

عشان كده، أكتر حاجة عملها الإنسان في الأمم اللي قبلنا أنه ادعي القدرة على الخلق، ضل من ضل منهم، ومازلنا مش بنتوقف عن السعي للخلق.

مفهوم "الغولم" من أهم المفاهيم في الديانة اليهودية، بالمناسبة، هناك كثير من أعمال الغرب الفنية والأفلام بتتناول المفهوم ده.

الأصل التاريخي في الأديان البُدائية لمبدأ الغولم موضوع ثري وطويل ومحتاج عام بجانب عامنا هذا؛ عشان كده هيقتصر كلامنا عما انتهي إليه عند اليهود...

يشعر عزمي بنخسة(نغزة) غريبة في صدره ، يضع يسراه على قلبه كأنه يحثه على الصمود، يرفع قامته، ثم يكمل:

- ذُكر الغولم بشكل بسيط في التوراة، وذُكر بشكل واضح في التلمود، وبشكل مكثف في "الكابالا"، لو لسه فاكرين ايه هو "الكابالا" (يضحك برقة)،

مبدأ الغولم هو الغرض الرئيسي من سفر "اليتزيرا" أو ما يدعى بكتاب "الخليقة"، أو صحف إبراهيم.

باختصار، الغولم هو الجسد الطيني المنحوت قبل نفخ الروح به سواءٌ كان الجسد ده إنسان أم حيوان، وسواء كان نافخ الروح هو الإله أم إنسان.

معنى ده أن اليهود بيعتبروا أبانا آدم أول غولم صنعه الله من الطين قبل ما ينفخ فيه الروح بقدرته، ده منصوص عليه في التلمود اللي بيقول:

" في الساعة الثانية أصبح آدم غولم، خلال الساعة الثالثة تم نحت أطرافه، في الساعة الرابعة نُفخت فيه الروح."

سكت لحظة، ابتسم دون سبب، ثم سأل:

- حد يعرف مين أول امرأة نزلت عالأرض طبقا لكتب اليهود؟

وقبل أن ينطق أحد بأي كلمة، قال سريعًا بثقة:

- غلط.

ثم ضحك بشدة مكملا:

- لاء، مش ستنا حوا.

هم مابيعتبروش حواء أول امرأة، بيقولوا أن هناك قبلها امرأة بتتسمى "ليليث"، في غاية الجمال خلقها الله بيده من طين زي آدم بالظبط (يظهر عزمي حافظ دهشة مختلقة على وجهه ثم يكمل)

امرأة غولم نفخ فيها ربنا من روحه، تزوجت أبانا آدم لكنها اتمردت عليه، اشتكاها آدم لربه، فلعنها الله وخلق له من ضلعه حواء غير المتمردة، يعني أمنا حوا مش غولم... يالا هَيَصُوا.

يبتسم بسخرية، فيضحك بعض الطلاب ضحكة خفيفة من نقاء ابتسامته، يجد بعض العقول قد تشتت، فيضرب أصابع يمناه لتصدر صوت "طرقعة"، ثم يقول:

- نرجع تاني يا ولادي لكتاب الخليقة:

الفرق الأساسي بين ما حدث في الحقيقة وبين الديانة اليهودية أن الله في الحقيقة ماعلمش إبراهيم إحياء الموتى، وإنما جعله يرى عملية إحياء الموتى، أو بأقصى تقدير جعل له المقدرة على إحيائها بإذن الله، ولكن ليس العلم.

عند اليهود بقى، الإله علم إبراهيم القدرة على الإحياء، وبعدها دوّنها إبراهيم على ورق، وتدارسه مع "سام ابن نوح"، بعدها قام إبراهيم نفسه بخلق أرواح عدة بالعلم الذي تعلمه من الإله.

هنا يبقى السؤال: من أين أتى سفر "اليتزيرا" الملعون؟!

صمت بعدها ثواني عدة، يهمس بأشياء غير مفهومة كأنه يسمي الله أو يعيد السؤال، رجع بغتة إلى طلابه ليكمل:

- مهم أوضح هنا أن ده بيتم دراسته كعنصر من عناصر التراث مش أكتر.

بردو حابب أوضح بعض الأمثلة على استخدام كتاب الخليقة في الخلق أو الإحياء عند اليهود، أمثلة مثيرة جدًا:

أخذ نفسًا عميقًا كأنما يستعد لحدث مهم، مشط شعره الناعم جدًا بيمناه، أكمل بابتسامة متوترة على عينيه:

- أشهر الحوادث دي، من حوالي خمسمائة سنة في "براغ" بالتشيك.

من المعروف تاريخيًا أن اليهود كانوا دايمًا بيلجأوا في طقوسهم لإراقة الدماءالبشرية كأنهم بيتعبدوا لآلهة وثنية،

أرادوا التضحية بدماء نقية وبالطبع دماء غير يهودية، فمكنش قدامهم إلا دماء أطفال تتبع ديانات أخرى وخاصة المسلمين والنصارى.

قتلوا وقتها طفل نصراني من سكان مدينة "براغ" في أوروبا عشان يستخدموا دمه في طقوسهم، ثار عليهم أهل المدينة النصارى واعتدوا على معابدهم، وده دايمًا كان بيحصل لليهود طوال تاريخهم.

خرج وقتها رجل دين يهودي اسمه الحاخام " لوف"، قام بدراسة "كتاب الخليقة" اللي هو صحف إبراهيم، وعن طريقه قام بإخراج غولم من الطين شديد القوه شكله زي البشر تمامًا، عشان يدافع عن اليهود.

ينظر دكتور عزمي إلى الطلاب فيجد أعينهم عابسة ساخرة مما تسمعه، يبتسم لهم، يقول بخبث:

- علفكرة الحدث ده ماتمش إثباته تاريخيا (ابتسم بخبث مرة أخرى) لكن كمان مافيش باحث تاريخي قدر ينفيه...

عشان تفضل أسطورة "غولم براغ" الشهيرة مستمرة غير مصدقة أو مكذبة.

تحول الطلاب أمامه إلى غُولم مذهول لم يُنْفَخ فيه الروح بعد، أخيرًا ينفخ فيهم ربهم من روحه فيستفيقوا.

وجه عزمي رقبته إليهم، فوضح على يمينها أثار القطوع المتوازية القديمة من تحت ياقة القميص الأبيض الصيفي؛ يمسّها بأنامله بقلق، يرفع رأسه فجأة كمحارب لا يستسلم و يكمل:

- السؤال هنا: إيه خلى اليهود يؤمنوا بحادثة زي "غولم براغ" وغيرها؟

يجيب أحد الطلاب (عبد الله) يبدو على وجهه علامات الاستمتاع بالمحاضرة:

- ممكن يا دكتور يكون فيه حوادث مشابهة في التوراة والتلمود.

يأخذ عزمي نفسا بسعادة، يقف فجأة:

- "برافو" يا عبد الله، الاختلاف بس أن مفيش في التوراة، لكن فيه الكثير في التلمود من تجارب أشبه بالخلق، منها مثلا:

أن رجل الدين اليهودي المعروف "بالحاخام رافا" اللي عاش من أكثر من ألف وخمسمائة سنة، قام بدراسة "كتاب الخليقة" أو "صحف إبراهيم" لمدة ثلاث سنوات متواصلة، وبالفعل خلق رجل غولم وأرسله إلى "الحاخام زيرا" اللي اكتشف أنه غولم لأنه مكنش بيتكلم تمامًا.. ومن المعروف عن "الغولم" أنه مابيكونش عنده القدره أنه يتكلم أو يصدر أي أصوات.

يعود عزمي إلى الوراء خطوتين، ينظر إلى الطلبه الجالسين بجانب بعضهم كأنما يريد التقاط صورة كاملة للمشهد، ذلك المشهد "الغولمي" الصامت... يكمل:

- احنا بقى كمسلمين مش بنصدق أن اليهود لهم القدرة على الإحياء أو الخلق بإذن الله، لكن ربما تكون الشياطين قد دلست عليهم فكانت نوع من الصناعة كما يصنع الإنسان الآن أو نوع من الاستنساخ.

يكمل عزمي بحماسة:

- موجود أيضا في التلمود يا ولاد أن رجليّ الدين (الحاخامين هانينا وهوشيا) كل يوم جمعة كانا يستخدمان "كتاب الخليقة" أو سِفر "يتزيرا" عشان يخلقوا عجل أو بقرة ياكلوها يوم السبت (يضحك عزمي) وهو اليوم المحرم فيه على اليهود الخروج من "دارتهم".

أراد عزمي القول: "الخروج من دارهم" لكن لسانه تلعثم.. بصوت عالٍ وغرابة وبطء شديد كررها:

- "دارتهم".

د ا رت هـ...

يكررها وينظر أمامه بغرابة، تتساقط حبات عرق كثيفة على جبينه، فتبدو كقطرات ألماس تحت أشعه الشمس...

يكررها عزمي بصوت مرعوش:

- دا..ر..ته

تحت وطئة حرارة الجو الشديدة، يرتعش جسده كشرقي سافر إلى "الاسكيمو" شتاءًا"، ينظر له الطلبة بذهول، ينادونه:

- "دكتور.. دكتور "عزمي".. حضرتك تعبان؟"

لا يرد عزمي بل يكررها "دا..ر.ت. ي..ه"

يركض فجأة دون كلمة، تنزلق قدمه في الأتربة الناعمة لكنه يستعيد توازنه، يصل إلى سيارته البيضاء القديمة، ينتفض صدره هبوطا وعلوًا.

يتصل برقْم فى سرعة الريح، يأتيه الصوت من الجانب الآخر: "آلو"

- آلو، أستاذ كامل،.. عايز أشوفك وأشوف خايف حالًا

- خير يا دكتور عزمي.. أنت بخير؟

يقول عزمي بحسم غريب عليه:

- اديني العنوان أنا هَمُر عليك.

يُدهش كامل من طريقة عزمي... فيرد بقلق:

- طب أنا مش في البيت دلوقت ممكن تديني ساعة ونص وأعدي عليك في البيت يا أستاذ عزمي؟.

- قلتلك اديني العنوان هَمُر عليك، ارجع البيت حالا.

لم يستطع كامل تحمل سطوة تلك اللهجة الآمرة العجيبة، فما

كان منه إلا أن أعطاه العنوان وتوجه عائدًا إلى بيته سريعًا..

في سيارته، يحاول عزمي فض بكارة تلك العُقَد المتشابكة في عقله، يرتجف ويفتح عينيه عن آخرها، ما يفكر فيه الآن هو الجنون بعينه!.

يفرك عينه بيسراه، مازال لا يري بوضوح... يتشبث بعجلة القيادة... ينظر لأسفل، فيجد نظارته الطبية في جيب قميصه الأبيض... يمد يده ليخرجها ثم ڤ.

يشعر بألم رهيب في رأسه وجسده، كأن عملاقًا ضخمًا يجثم فوق بدنه، يفتح فمه بصعوبة ليأخذ ما يبقي حياته، ليس للألم من مصدر؛ فكأنما هو والألم قد توحدا.

بصعوبة يفتح عينيه، بقع حمراء تتناثر على قميصه الذي كان أبيضَ منذ لحظات.. بضع دمعات تسقط من عينيه، طعم غريب في فمه، تُغلَق عيناه رغما عنه، ونفس اللون الأحمر يطعن قلبه.. يتهادى برفق إلى اللاشيء.

***

(١٩)

﴿ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾ ﴾

[البقرة: ١٥٤]

بسرعة شديدة يعود كامل إلى بيته، تمضي الدقائق فالساعات ولا يأتي عزمي...

يجلس بجانب خائف الذي صار أمره عجيبًا، يطلب منه كامل أن يناوله الهاتف، بغرابة شديدة جدًا يلتقط خائف الهاتف من خلف ظهره دون النظر له ثم يناوله لأبيه.

أمامهما في التلفاز امرأة على قناة إخبارية ترتدي "بلوزة" ضيقة و"جيبة" قصيرة؛ فيظهر عودها دقيقًا ملتويًا، بلهفة ينظر كامل لامسًا منبت شاربه بلسانه متخيلًا المرأة بين أحضانه، يهيم "كامل" في تلك "النَحَتة" الجميلة التي هي امرأة.

فجأة ينزل كامل على ركبتيه، ثم يهرول نحو التلفاز مستندًا على كفيه وركبتيه كحيوان، يعض على شفته السفلى، ويرفع الصوت إلى آخره في حركة واحدة، يفتح عينيه إلى آخرها و يلتصق "بالمرأة النحتة" تمامًا .

تُحدث "المرأة النحتة" رجلًا يجلس جانبها بلسان أعوج:

- معنا الدكتور " أيمن عبد الدايم" المسئول في وزارة النقل: "دكتور أيمن":

إلى متي تستمر الحوادث في طرقنا السريعة دون محاسبة؟ أربعة قتلى وخمس مصابين على طريق الصعيد دون مسئول.

ثمانية وأربعون ساعة مرت الآن وليس هناك أي إجراءات...

تظهر على الشاشة أشلاء سيارات وزجاج مكسور، تظهر أيضًا جثتان لرجلين مغطين بأوراق من الجرائد مثبتة بأحجار، آخرون

"يتعكزون"، صور يختلط فيها "الأسفلت" باللون الأحمر الدموي.

ترمي هذه الصور سهمًا في قلب كامل... يكاد يقع للخلف، يستند على يديه، يعود خطوتين إلى الوراء متكئًا على يديه وكعبيه، تكمل المرأة موجهة كلامها إلى الرجل الجالس أمامها:

- يعني سيادتك بتتهم سائقي النقل، برغم أن هذه الحادثة خالية منهم تمامًا،

هل خلت جعَبتكم من أي دفاعات منطقية؟!

إذا كان الأمر بهذا الشكل، نرجو تدخل السيد الرئيس لإنقاذ أرواح مواطنينا.

لا تعرف المرأة أن مسئول الوزارة محق هذه المرة برغم أنه قليل ما كان محقُ في أحاديثه "التليفزيونية" السابقة؛ فالسبب الرئيس في هذه الحادثة أيضًا، هو أحد سائقي النقل.

يجلس كامل على السجَّادة الحمراء ذاهلًا عما حوله، حتى عن "المرأة النحتة" التي احتضنها منذ دقيقة في خياله!! يا لها من دقيقة! دقيقة شاسعة طويلة كأيام الخلق.

ما حدث له أول أمس، أثناء عودته من أسيوط على السيارة النقل كان كالحلم: تلك الصدمة التي شعر بها في سيارته من الخلف، الدماء في وجهه من أثر اصطدامه بالزجاج، رأى في مرآة سيارته نفس السيارة التي يراها الآن على شاشة التلفاز مدموكة كالعلبة الصغيرة؛ الأصوات التي سمعها من خلفه، صرير فرامل سيارات متقاربة.

تدخل بهية عليهما لتجد "خائف" يسحب يد أبيه ليساعده على الوقوف.

تهم بإزاحة خائف لتقوم هي بالمهمة، لكنها تفاجأ بخائف يسند أبيه بسهولة شديدة، ويمشيان خطوة تلو الأخرى ناحية باب الغرفة، دهشت الأم من قوة ابنها، شيء غريب يحدث لخائف.

بأسى ينظر كامل إلى كفه.. دماء جديدة صارت تغرق يده، يتذكر كلمة خائف "امسح الدم اللي على ايديك"، يقول لنفسه:

- ايديك اتغرقت بالدم يا كامل، وهتفضل متغرقة طول عمرك.

ذلك الزر الأحمر في مؤخرة رأسه عُطِّل تماما بل نُسف! لا يسمع شيئًا مما تقول بهية بجانبه.

من الصالة يأتي صوت بهية صارخة في خائف:

- فيه ايه يا واد؟! ..عملت إيه في أبوك؟!

لم يلتفت خائف إليها بالمرة، بل قال بنبرة هادئة ورقبة غولمية لا تتحرك:

- معرفش فجأة حصله كده لما شاف "المُزة".

***

هنالك على بعد ستة عشر كيلومترًا، يرقد الدكتور"عزمي حافظ"، صار قميصه الممزق أحمرَ بلون الدماء.

يرقد في نفس المستشفى الروحاني الذي مكث فيه خائف وسلمى، يرى بصورة باهتة شخصًا ما يقلب في هاتفه المحمول، ينظر إليه الرجل، ويسأله:

- أكلم مين من أهلك؟!

يُجَمِّع عقل عزمي حافظ معني السؤال بعد معاناة، "يكلم مين من أهلى؟"

هناك أم عجوز لا تقوى على الحركة تعيش في قريته وأخ تخرج في كلية العلوم، أصغر منه بأكثر من عشر سنوات جَمَع له عزمي كل واجبات الأب، ولم يَنلْه منه إلا القليل من الحقوق.. طالما افتخر به أخوه "آدم" بين الناس:

- "الدكتور عزمي أستاذ بجامعة الأزهر أخويا وزي أبويا".

لكن للعجب لم يكن عزمي الأخ الذي تمناه "آدم"، بل بشكل أكثر دقة فقد تمنى أخًا أكثر منه! كان هناك شيء ما ناقص بعلاقتهما، قال عزمي للرجل بجانبه:

- ماتتصلش بحد عشان مايقلقوش.. أنا كويس.

خلال نصف ساعة استرد عزمي وعيه كاملًا، واسترد أيضًا نصيبًا كبيرًا من الإحساس بالألم، ينظر أمامه فإذا بمدير المستشفى وحوله أربعة موظفين و"دكاترة" كحرس خاص.

هو ليس مجرد مدير لمستشفى بل هو "صالح موسى" وهو من هو وليس في محبته إلا القليل، هما من نفس القرية، ونفس العمر تقريبًا، لكن من قسمين مختلفين تمامًا، قسم "العلم الذي ينفع" وقسم "العلم الذي لا ينفع" (عائلة الحكيم وعائلة حافظ التي صارت تتصاغر مؤخرا)

قال الرجل الذي بجانبه:

- عندك بوادر ارتجاج وخلع في الكتف.

لم يهتم عزمي بل ربط ذراعه وخلال ساعة كان يقف على عتبة عمارة بهية وكامل بـ "إمبابة".

يتقدم خطوة إلى الأمام، بشيء ما اصطدم رأسه، يضع يده على جانب رأسه فيجد آثار دماء طازجة، اصطدم رأسه "بالكَمَرَة" الحادة الساقطة في البوابة.

بعدما صعد إلى الدور الخامس، نظرت له بهية بدهشة، قميصه الأحمر الممزق والذراع المربوطة.

بمجرد أن رآه خائف ركض نحو الحمام، يأتي صوته من داخل الحمام يتقيأ، بعد أن خرج "خائف" من الحمام، يسلم عليه عزمي بيده، سحب خائف يده مفزوعًا.

بعدها، يغسل عزمي جروحه سريعًا، توقظ بهية كامل وتجبره أن يعطي له قميصًا نظيفًا فيبدو عزمي في قميص كامل "البرتقالي" الضيق "كوميديا" .. تكاد الأزرار تنفك حول صدره وبطنه...

فجأة هَرْول عزمي حافظ إلى غرفة خائف دون استئذان من أبويه، العجيب أن هذه المرة نظر له خائف بود مسلمًا عليه، سأله عزمي أسئلة متلاحقة بحسم رهيب:

- احكيلي عن "دارتي"!.

طب هي دارتي بتعمل أي صوت؟

هي عمرها عملت صوت البقر اللي نعرفه؟

ثم قلد الدكتور "عزمي حافظ" صوت خوار البقر "موووووووو"

فضحك خائف بـ "هستيريا" على ذلك الرجل الذي كان محترمًا يومًا ما أما الآن؛ فيلبس قميصًا "برتقاليًا" ضيقًا يظهر شعيرات صدره و"سرَّته" بين الأزرار ويتصنع "المووووو" مثل الأبقار.

بمجرد أن انتهى خائف من نوبة ضحك، أجاب سريعًا:

- لاء.

- والأبقار اللي ظهرتلك في فترة نومك، لاحظت أن أي واحدة فيهم مابتعملش أي أصوات زي دارتي؟!.

رفع خائف كتفيه ثم أجاب:

- كلهم عاديين... "دارتي" هي الوحيدة بينهم اللي "خرسا"، مابتتكلمش.

تناسى عزمي كل آلامه، قام بـ "كَحْت" مقدمة رأسه بأصابع يده المخلوعة...

- احكيلي كل تفصيلة عن "دارتي"، متتكسفش مني.

صار "خائف" يحكي بحماسة ... تنفتح عينا عزمي كمن مسّه الجنون.

اليوم يصدِق عزمي أن خائف لم يحلم طَوال حياته، لم يحلم إلى الآن.

ذلك الوحي الذي هبط عليه... الوحي الخبيث...

(٢٠)

﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ٤٠ ﴾

[البقرة: ٤٠]

يخرج "عزمي حافظ" من غرفه "خائف" فجأة، مرتديًا قميص كامل الضيق.. يصرخ بصوت مبحوح صاخب كأنه من أهل دارهم:

- أستاذ كامل، أنت فين؟.

يضحك خائف بشدة على ذلك الرجل الساذج، لكن ماذا يريد من "دارتي" صاحبته؟ .. لم يثق بأحد مثلما يثق بها، ربما أخذت "غلاوة" أبيه وأمه حتى إنها تأتيه كل يوم فى منامه، لَم تفعلها "بهية" مرة واحدة وأتت له وهو نائم!.

ينظر عزمي ببلاهة لكامل:

- أستاذ كامل، أنا هشرحلك الموضوع، وهنحاول بكل ما نستطيع ابنك يبقي بخير.

اللي بقولهولك غريب عليك بس ابننا خايف اتعرض عن طريق البقرة الغولم اللي لِعِب معاها، واتصور معاها لسحر يَهُ.

تشهق بهية برعب، لكن عزمي يكمل بإصرار:

- عايزك تركز معايا يا أستاذ كامل،

اليهود من أيام اختلاطهم بالأقوام الوثنية زمان زي البابليين، وأعيادهم بتختلط بها الطقوس الوثنية، اليهود زمان كانوا بيدبحوا كبشين، واحد في الهيكل بيتقدم للإله والآخر بيُلقى من صخرة عالية، يُقدم لتهدئة إبليس في يوم الغفران، اللي هو أقدس أيام السنة عند اليهود.

من جنونهم، مؤمنين إن الإله بيغسل خطاياهم في اليوم ده عشان كده بينتهزوه فرصة لتقديم الدم البشري قربان للإله، لأن حسب عقيدتهم، إلههم بيقوم بتغيير مصير اليهود في السنة

الجديدة في اليوم ده.

يقاطعه كامل بحدة وسخرية كأنه يخرج فيه سخطه من الدنيا:

- أنا مش فاهم حاجة منك يا أخينا انت، يهود ايه وزفت ايه! أنا مالي بكل ده...

الحقيقة أن عزمي يعلم بأن كامل "مش فاهم حاجة منه"، لكنه يحكي "بلَهْوَجة" وسذاجة غريبة على أستاذ جامعي، بل غريبة على طالب "ساقط إعدادية".

اتكأ عزمي على ذراعه المخلوعة فصرخ ألمًا، بعدها قال بهدوء:

- اسمع بس يا أستاذ كامل، البقره اللي اتدبحت واللي بيسميها خائف "دارتي" هي السبب في كل ده.

هي اللي بتطلعله في نومه، واللي اتسببت له في كل شئ شيطاني أصبح بيحصله.

هي السبب في ريحة الدم اللي بتسيطر عليه، هي السبب في المشاهد الجنسية الأنثوية اللي بتقتل رجولته قبل ماتكتمل.

يسمع "خائف" بابتسامة بلهاء، أما بهية؛ فاقتربت أكثر من عزمي، قالت بصوت مبحوح فحيحي:

- والبت اللي اسمها سلمى ياسيدنا الشيخ ؟!.

رد عزمي بحسم هادئ:

- لا،.. سلمى مالهاش دعوة، سلمى مجرد بنت كانت بتتعالج ... البقرة هي التي تتلبس خائف الآن.

يقوم كامل من مكانه بعنف هذة المرة، صرخ في عزمي:

- ايه الجِنان اللي بتقوله ده، أنا مبقتش فاهم حاجة...

ثم جلس واضعًا رأسه بين يديه بانهزام، اكمل عزمي كأن لم يكن شيء من كامل:

- البقره التي بيسميها "خائف"" دارتي"، اتخلقت بكتاب شيطاني اسمه "كتاب الخليقة"، هي بقره مابتخورش، خرسا تمامًا، مابتطلعش أي أصوات، ظهرت له في رؤي كثيرة مدمرة.

فاكر لما ضمته البقرة بقوة رهيبة أول مرة وكان بيرتعش وقالكم: غطوني؟!، ده مبيفكركش بأول مرة نزل الوحي على سيدنا محمد، عليه الصلاة والسلام؟، لما قال لستنا خديجة: "زَمِلوني"، من الخوف والهيبة.

هل كان ممكن خايف يعارضها بعد ما خاض معاها تجربة أشبه ببداية وحي النبي؟

كل ما يأتي به الله حقًا يحاول الشيطان أن يُلبسه بالباطل... مش فاكر لما الشيطان قام بتلبيس وحي نبينا محمد على المؤمنين؟

البقرة الغولم سبب كل اللي بيحصله، وقريبًا جدًا، هتطلب منه الذهاب بعد ما سيطرت عليه تمامًا..

ارتعش كامل، رد بلسان متسائل وقلب يتألم:

- يعني ايه اتخلقت بكتاب شيطاني، وبقرة مبتخورش، يعني ايه تطلب منه؟

بنفس الحماسة اكمل عزمي:

- الموضوع أكبر مننا يا أستاذ كامل، انا عارف أنك حد بسيط، بس ده اللي حصل، اليهود عندهم القدرة على عملية شيطانية أشبه بالخلق، بيقوموا فيها بخلق كائن غولم–حيوان أو إنسان- وبينفذ

إرادتهم.

وجه بهية صار أحمرَ، وصدرها يهتز بعنف، أما كامل؛ فمُهَدَّم تمامًا، مثل بقايا معبد قديم، يلتقط عزمي أنفاسه، يُكمل:

لكن من حكمة الله إنه ميّز لنا خلقه العظيم عن الكائنات دي، بإن الكائنات الشيطانية دي لا تصدر أي اصوات، خرساء تمامًا كأنها مفيهاش روح،

ده اللي قاله "خائف" عن دارتي وده اللي استغربه منكم كل اللي شاف البقرة بتدبح أول أيام العيد،

أمّا هيهرب فين؛ فلحد دلوقت ماقدرتش أعرف؟!، عيد الغفران اليهودي السنادي يوم ٨ أكتوبر، يعني باقي عليه أيام بسيطة، وأكيد هيحاول يهرب ويروحلهم.

عقل كامل البسيط صار ممزقًا كورقة متروكة في محيط منذ الأزل؛ اكمل عزمي:

- اليهود من بدايتهم مكروهين من شعوب العالم، وأول أسباب الكره ده هو استخدام دماء الأطفال في طقوسهم الدينية زي يوم الغفران .

صمت عزمي لحظة ثم هز رأسه قائلًا بألم:

- أظن دلوقت أنت عرفت أنا عايز أوصلّك ايه يا استاذ كامل.

- انت بتخرف ياراجل انت؟ ايه الجنون اللي بتقوله ده، مالنا احنا ومال اليهود واشمعنا خايف ابني...

الحقيقة أن كامل سأل "اشمعني خائف"؟، وهو يعرف الاجابة، توقع أن تكون إجابة عزمي:

"عشان ابنك وبيتاخد بذنبك ".

أما عزمي؛ فكان لا يهتم بشئ إلا أن يشرح، كأنه في محاضرة بين طلابه، اكمل:

- اشمعنا خايف؟!، عشان اليهود بيتعمدوا يختاروا دماء نقية وفيها قوة وجرأة عشان طقوسهم!، ومكنش فيه أنسب من خايف.

وعايز تعرف مالك ومال اليهود؟، اعرف مين من اليهود عايش بينكم.

قالها الدكتور "عزمي" ثم تقدم خطوة ونصف إلى الأمام ليقف أمام كامل مباشرة، هما نفس الطول تمامًا، يرفع عزمي حافظ رأسه تجاهه بعناد -علامة الانتصار-، يرجع كامل خطوة إلى الوراء معلنًا هزيمته أمام نظرة عزمي الحادة.

أما بهية؛ فترتجف شفتاها بسرعة جنونية، تحاول لضمها حتى تغزل الكلام بينها فلا تستطيع .. قالت وهي تنظر إلى عزمي بهلع:

- "يافتة"!.

بذهول رددها كامل وراءها "يافتة"، يقف مكانه متأملًا عزمي بغيظ كأن عزمي هو سبب ماحدث له منذ ان خَطَت قدماه ...

قامت بهيه فجأة وعيناها تكادان أن تفجرا كل ما ينبض بالحياة على الأرض، قالت بحرارة تكاد تبخر دماءها:

- يبقي هي يافتة، هاكلها بسناني .

ثم أكملت بنبرة أخرى تمامًا، نبرة قلقة خائفة:

- بس بعد ماترجَّع ابني زي ماكان...

بسرعه رد عزمي:

- مش مهم الست اليهودية دلوقتي، هي مكانتش ليهم أكتر من دليل يدلهم على طفل غير يهودي ومختلف يستخدموه في طقوسهم، هي أضعف من أنها تعمل سحر بنفسها.

"يافيت"، أو "يافتة" صديقة خائف، المرأة اليهودية التي يزيد عمرها على ثمانين عامًا، وحيدة تمامًا. قصيرة الآن بعد أن كانت طويلةً يومًا ما...

صارت غير قادرة على العمل، يشفق عليها أهل المنطقة ويساعدونها بالطعام والملبس، يقولون لها في المنطقة "الحاجة يافته"، "يحججونها" بخيالهم كنوع من التبجيل وأيضًا نوع من السخرية المصرية...

أحبها "خائف" بشدة حتى إنه يذهب إليها كثيرًا ركضًا لمدة ربع ساعة، ثلاث درجات للأسفل يوصلنه إلى مسكن "الحاجة يافته"، ثم يكون بجانبها.

- انتي عنيكي حلوة اوي يا "يافتة"، هو ليه ماما عينيها مش حلوة كده ؟.

هكذا يقول خائف ناظرًا إلى عين "يافيت" التي يمتزج بها اللون الأزرق مع اللون الأخضر بلون مياه شواطيء مدينة "يافا" الباهرة، تقول له:

- انت اللي عينك حلوة يا وله.

يحكي لها خائف كل شيء، تسمعه وتحكي له عن طفولتها وشبابها...

- متقوليش يافتة ياوَلَدي، انت بالذات قولي "يافيت" باسمي.
- ليه يا "يافتة"؟

ترد عليه "يافتة" فاتحة فمها الضيق مظهرةً مغارة مظلمة خالية الأسنان:

- عارف "يافيت" معناها ايه؟، يعني جميلة بلغتنا، عارف... أبويا من جمالي كان بيقول مش هجوزك لحد إلا لفاروق نَفسُه لما تكبري.

لم يفهم خائف ما لغتهم التي تتكلم عنها!، ضحكت هي ضحكة ساخرة جميلة تظهر بعض أطلال الجمال المتبقية، تكمل:

- واديني اتجوزت "أسطي ميكانيكي" قد الدنيا.

يهتز جسدها الهزيل بقوة من الضحك فيحيطها خائف بيده؛ خوفًا من وقوعها، تكمل دون أن تنظر إلى خائف:

- لكن على كل حال الأسطي "افرايم" الميكانيكي طلع حظه أحسن من حظ الملك فاروق...

تتوقف فجاة عن الضحك. تمصمص شفتيها، ما أسهل مصمصة الشفاة دون أسنان!، يسألها خائف:

- مين فاروق ده يا يافتة؟
- ياواد قولتلك قولي يافيت، مش أنا لسه جميلة؟ فاروق ده قصة طويلة، مش بيحكولك عنه في الفصل ولا ايه؟

يتذكر خايف... حكت له مُدَرّسته عن "فاروق" وطلبت منهم أن يقرأوا له الفاتحة التي يحفظونها، لم يقرأها هو، كان يحفظها قديمًا ثم نَسِيها، قال فقط "آمين" مع المدرِّسة، ثم دعا لفاروق

بالرحمة التي لا يفهم معناها.

قال خائف فجأة لـ "يافيت" بحماسة كمن وجد كنزًا يبحث عنه:

- فاروق الفيشاوي.

فضربته يافتة بيدها الضعيفة، قالت ضاحكة:

- مين ده ياواد؟ أنت بتروح مدرسة ايه؟ "يخرب مطنك".

على كلٍ، فبالرغم من إشفاق كل أهل "الحتة" على الحاجة "يافتة"، فإن الوحيد الذي اعتبرها صديقته هو "خائف"، بقلبه الواسع وعقله الضيق.

كل مُدّة، يذهب إلى بيتها المنحوت تحت الأرض يتأمل عينيها الجميلتين "اليافية"، يحدثها كأنه يحدث نفسه، ويسمع منها حكاويها التي تحكيها آلاف المرات .

***

- نعمل ايه يا شيخ؟.

قالتها بهية للدكتور"عزمي حافظ" بدموع ترتعش على عتبة عينيها، بعد أن تذكرت "يافتة" ذات العينين الشيطانيتين، فرد عليها عزمي:

- كل اللي هطلبه منكم النهاردة أن سورة البقرة متتقطعش من البيت، وخايف ميطلعش بره الشقة تحت أي ظرف طول الايام الجاية، عالأقل لحد يوم ٨ أكتوبر، تاريخ يوم الغفران، خايف لو طلع هيروح لليهود، ووقتها مش هنعرف نمنعهم يأذوه.

في الغرفه المجاورة ينام "خائف" في سريره، في مكان آخر هو، يقف بجانب صاحبته "دارتي" ، صور كثيرة يشاهدها معها وتحوطه:

مسجد له قبة، ومئذنة عريضة مفتتة من الأعلى.

صورة لترعة طينية جافة بداخلها الكثير من الحمير.

ميدان واسع في منتصفه تمثال "جِبس" رمادي اللون جعله صانعه للقبح مثلًا.

بقايا مبني مهدم بوابتة كبيرة مقوسة، له شبابيك كبيرة، رائحة عفنة تنخر فيه، يقف وسطه رجل مطلق اللحية والشارب، ينظر للأعلى...

ينظر خائف في عين "دارتي" فيجدها متوسلة له، كأنها تقول له:

- ساعدني.

(٢١)

﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾ ﴾

[البقرة: ١٠]

تتلامس الأجساد والأرواح متباعدة ...

على باب غرفة "خائف"، تقف بهية وراءها كامل يلامسها بجسده، يفكر كامل في ابنه النائم أمامه ... هل يأخذه الله بذنب أبيه؟ سمى ابنه"خائفًا" وما نفع الاسم، إذا كان الخوف لاينفع فما الذي ينفع؟، لم تنفع "كامل" جرأته قديمًا ...

يتذكر قديمًا عندما عاد من "فيلا" صديقته آمال يمتلىء جسده بالكدمات، أنفه مكسور ومشوه من ضربات أخويها، لم يذهب أبوه "ابراهيم" ليشوه من شوهه، بل حبس الصغير كامل في المنزل، أغلق أبوه باب الشقة بالمفتاح وجلست أمه بغرفته: أربع وعشرين ساعة تحبسه، تساءل الصغير "كامل":

- هل حبسني أبي لأن أنفي صار قبيح الشكل؟

لم يكن يفهم شيئًا، هل خافا عليه أَم خافا منه؟

نال أبوه "إبراهيم" شرف محادثة "موسى باشا حكيم" شخصيًا، تحدث مع السيد -عضو البرلمان- بنفسه.

سمع الصغير كامل صوت موسى حكيم يأتي من الجهة الأخرى للهاتف، فحُفرت الكلمات في ذاكرته:

- أنا موسى باشا حكيم، هقولك كلمتين يا أستاذ إبراهيم، اسمعهم من غير ماترد، ابنك "كامل" كان عندي في "الفيلا" النهارده، ماكنتش في البيت وأولادي رجعوه بخدوش بسيطة، لو لمحته المرة الجاية هيرجعلك سليم تمامًا بس خدوشك مش هتبقي بسيطة، وقتها هعتبرك مسئول عن اللي حصل، فرصة سعيدة،

أستاذ إبراهيم.

الأستاذ "إبراهيم"، أبو كامل، مدير في قسم القروض في "بنك" أجنبي، ميسور الحال جدًا وشجاع؛ برغم أنه بيخاف أحيانًا أن مالُه يكون حرام.

لكنه في تلك اللحظه استحوذ عليه شعور غريب، شعور "كتكوت صغير" خرج توًا من بيضته، هاجمه نسر من الأعلى فأخفض رأسه هلعًا، قال لزوجته بخوف حاسم:

- ابنك "كامل" ميروحش المدرسة وميتحركش من البيت تحت أي ظرف.

قالها وهو ينظر إلى ابنه باشمئزاز، وينظر إلى نفسه باشمئزاز أكثر.

استفاق كامل من تلك الحدوته القديمة على رائحة شعر بهية القبيحة في أنفه، يتلمس أنفه المعوج إلى اليمين قليلًا، وبها ندبات لَم تعالَج في وقتها.

نظر إلى خائف بقلق، أحس تمامًا بنفس شعور أبيه يوم تحول "كتكوت" بعد محادثة موسى حكيم، قال كامل لنفسه بسخرية:

- اللي خلف مامتش.

سكت لحظة، ثم همست شفتاه بلا وعي منه:

- حتى لو اعتبر ابنه مات.

تتلامس الأجساد والأرواح متباعدة.

كل ماتفكر فيه بهية هو المرأه القصيرة العجوز بجسدها الواهن وعينيها الزرقاوين القبيحتين، "يافتة" ، كم تتمني أن تدق عنقها!.

احمرت عينها فورًا وارتجفت، رجعت خطوتين إلى الوراء، فخبطت أنف كامل المعوج ليسيل دماءها، ويندفع كامل خطوات للوراء ...

هرولت نحو الباب بلا وعي، في ثوانٍ كانت تركب أول "توك توك" متجه إلى "المرأة أم عيون قبيحة".. "يافتة".

- انتي ياوليه ياللي اسمك "يافتة".

لم تبحث بهية هذه المرة كثيرًا عن "الكلمة البادئة"، بل أطلقت الكلمة تلو الأخري بسهولة من مدفع لسانها ...

تجمع الناس حول لسانها الصاخب ويدها "المُدَبْدِبه"على الباب الخشبي المقسوم من المنتصف:

- اطلعي يابت الـ...ة هنا وريني نفسك.

من الداخل لم ترد "يافتة"،أو حتى ردت "يافيت"...

"خير ايه حصل".

" ياساتر يارب".

"عملت ايه الوليه دي؟".

"مالك ياست؟"!.

تناثرت تلك الكلمات حول أذن بهية ولم تدخل إياها إليها، لكنها على كلٍ، صارت تحكي كلامًا عجيبًا على أُذُن الحاضرين عن خائف،

ويافتة، واليهود، وقتل الأطفال و٨ أكتوبر عيد الغفران.

صرخت بهية بأحبالها الصوتية الغليظة:

- أنتي خايفة ياوليه ..اطلعي يا يافتة من جوه ..اطلعي لاجل اخد أجلك.

تمر لحظات طويلة ثم تصرخ مرة أخرى:

- والله لادخلك يا ولية يا يهودية يا بت الكلاب ...

ينفتح الباب المشروخ من "تخبيط" يد بهية القوية.

في كل مكان تبحث بهية عنها فلا تجد أثرًا لها... تصرخ بهية بلا وعي. هل أُخذ ولدها بلا ثمن؟، يأتي صوت إحدى النسوة من الخارج يقول:

- مابانتشي يا حبيبتشي ولا فتحت الباب من ييجي أكتر من تلات ايام.

ترد عليها أخرى بسرعة:

- مش غريب عليها يختي، هي ساعات بتغيب أيام وبردو بنلاقيها جوه.

لكن هذه المرة لم تكن يافتة "جُوه".

***

﴿ الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢ ﴾

في حلقه مستمرة تدور هذه الآيه في "الكاسيت" القديم في بيت بهية كل ساعتين ونصف الساعة؛ ثم تعاود الالتفاف من جديد كما طلب "الدكتور""عزمي حافظ"، قال كامل لبهية بمجرد عودتها:

- عايزك تبقي جنب "خايف" الأربعة وعشرين ساعة والباب هنقفله بالمفتاح.

هذه الجملة جعلت كامل يعود خمسًا وثلاثين عامًا إلى الوراء في شقه أبيه في الزمالك، لربما استخدم أبوه مع أمه نفس الجملة تمامًا:

- عايزك تبقي جنب "كامل" الاربعة وعشرين ساعة والباب هنقفله بالمفتاح.

واستبدل فقط اسم "خائف" باسم "كامل".

هنا في "إمبابة"، على بعد ثلاثة كيلومترات، فقط، من منزل أبيه الواسع بالزمالك، يضحك كامل بسخرية، ويناول مفتاح الشقة إلى زوجته، تدسه في "عِبها"، في ذلك المنخفض العازل بين ثدييها، ولا ألف "خايف" قادرين على إخراج المفتاح من مكمنه هذا.

مقعدان موضوعان بجانب سرير "خائف"، يجلس كامل على نصف مقعد وتجلس "نصف بهية"على مقعد... ينظر خائف لأمه بعناد، يسألها:

- هو أنا كمان عندي ملبوسة زي سلمى؟

فجأه يقوم خائف من سريره، بقفزتين متتاليتين يكون خارج

الغرفة، قفزتان أخريان... يصير أمام باب الشقة، يفزع الأبوان، تسبق بهية كامل لتصطدم بجانب الباب بجسدها الكبير، يقف خائف بغتة، يفتح "التلفاز" ويجلس على "الكنبة" بسرعة خارقة، يضحك عليهما بصوت عالٍ، لم ينطق كامل أو بهية بل نظرا لبعضهما بأسى.

قال خايف لوالديه بعناد طفولي:

- ممكن توطوا التسجيل؟...عايز أشوف "كرتون".

يقلب بين قنوات "التلفاز" الكثيرة باحثًا عن شيء مثيرٍ أو مسلٍ، فجأة، تلمع عيناه وترتعش كمن وجد كَنزًا، ثم يعود لنفس القناة التي مضت...

الصور التي يراها أمامه على شاشة "التلفاز" رآها قبل ذلك مع "دارتي" و"سلمى"، يفتح عيناه إلى آخرهما: صورة لمبني مهدم ببوابة ضخمة، ومع الصور صوت لامرأة تقول:

- فقط عندما تتحول الأماكن المقدسة إلى حوائط مهدمة، وأنقاضٍ من القُمامة، تشاهدون الآن معبد الحاخام "حاييم الامشاطي" أو مايعرف بمعبد "خوخة اليهود"، مكان مقدس قصده الحجاج اليهود لمدة ألف عام، يتحول إلى ذلك المشهد المقزز الرائحة.

تم بناؤه عام ٣٤٥ هجريًا أي منذ نحو ألف سنة وقت الخلافة الفاطمية، المعبد تكون من طابقين؛ الطابق الأول عبارة عن قاعة كبيرة ويحتوي أيضًا على حجرة "للجنيزة"؛ وهي الأوراق الدينية

المهمة التي يحتفظ بها حاخامات اليهود، أما الطابق الثاني؛ فمكون من مكتبة.

يقع معبد "خوخة اليهود" في منطقة سوق اللبن في المحلة، ويعد تراثًا مهمًا للمصريين بجميع طوائفهم قبل أن يكون تراثًا يهوديًا؛... قامت وزارة الثقافة المصرية أخيرًا بتسجيله أثرًا يخص المصريين جميعهم، ويتم الآن التخطيط لترميمه قريبًا، نود أن نشكر مسئولي الوزارة وسيادة الرئيس على ترميم التراث المصري.

يخرج كامل من غرفته بسبب صوت التلفاز العالي، يتعجب مما يشاهده "خائف" .. تلتقط أذناه بعض كلمات المذيعة؛ بلا تركيز.

- وطي التليفزيون ياخايف، عشان القرآن.

أغلق خائف التلفاز، نظر إلى أبويه، قال بصوت هادئ غريب عنه تمامًا:

- أنا معنديش "ملبوسة"، ولا سلمى... أنا لازم أروح لـ "دارتي".

هنا... ارتمي كاملٌ على "الكنبة" الخضراء مهدمًا، ناظرًا إلى "عب" بهية؛ ليتأكد أن المفتاح مازال مرتاحًا في مكمنه.

قال هامسًا:

- اعمل اللي تعمله يا خايف، مش هسيبك تخرج من البيت ده، المعركة دي خسرتها قبل كده قدام موسى حكيم، بس مش هخسرها قدام اليهود وعفاريتهم.

***

(٢٢)

﴿ أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡمُفۡسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشۡعُرُونَ ١٢ ﴾

[البقرة: ١٢]

يؤمن عزمي حافظ تمامًا بما حَدَّث به نبيه، أن الشيطان يفر من البيت الذي تُقرأ به سورة البقرة، وهذا هو تحديدًا ما يخشاه عزمي حافظ، أن يفر "الشيطان الغولم" الذي يتلبس خائف (ومعه خائف) من بيت أبويه.

لذا، قرر "دكتور عزمي" أن يحمل غدًا في قلبه ويده آيات سورة البقرة، ويذهب إلى خائف، يعود من عنده، إما مقضيًا عليه أو قاضيًا بخير للأمة بأكملها، لن يكتفي فقط بإنقاذ طفل طيب من أبالسة اليهود، لكنه سيكشف سحر اليهود، وتعاويذهم أمام العالم كله.

قرر أن ينام في الصالة مفترشًا الأرض، حتى تتعلق عينه بالثلاثة تابلوهات على الحائط بآياتهن الوامضة.

يشعر بجسده يمتزج بالآيات البارزة، تلاحقه في منامه، يري الآيات برموزها الغامضة تلتف حوله بشكل ملائكي، دوامات نورانية تَضِيق عليه، فترفعه من مكانه، يلف هو معها، يتسع جسده ليسع كل شيء، ربما صار لا نهائيَ.

تقترب الساعة من الرابعة فجرًا، تنام بهية على الكرسي في غرفة "خائف" ، أما كامل؛ فنائم في غرفته، يحلم بذلك اليوم منذ خمسة وثلاثين عامًا.

لم يكن الصغير كامل يعرف سبب حبس أبوه له في المنزل، يقوم من سريره الوثير، يمر الصغير كامل بجانب أمه متجهًا إلى غرفة أبيه النائم... بحثًا عن مفتاح الشقة.

يدخل غرفة أبيه بخطي هادئة، يفتح "الدولاب" ليخرج حقيبة والدته التي تخفي المفتاح، يشعر بحركة أبيه يتقلب في سريره، فينبطح على الأرض.

يَتَسَحّب بعدها إلى الخارج، يضع المفتاح في باب الشقة فيصنع صوتًا قويًا، تفتح الأم عينيها، تقوم لتجد الباب مفتوحًا إلى آخره ... ريح برِد أسود يصدم صدرها.

يومها، بمجرد أن فتح الصغير كامل باب المنزل بالزمالك... طار إلى الأسفل متجهًا إلى الفيلَّا الخاصة "بآمال" صديقته.

ركض بسرعة رهيبة، وخلفه أبوه يحاول اللحاق به فجر ذلك اليوم الصقيعي، إبر الصقيع "تنغزه" في جسده الصغير ولايهتم، الشوارع فارغة تمامًا والسماء صارت تقذف أمطارًا، أو ربما لعنات، لم يكن يشعر بجسده الممتلئ أصلًا بالكدمات، أما أنفه المكسور؛ فكأنه لا ينتمي إلى جسده.

أمامه وجد البوابة الخارجية لفيلا آمال صديقته، ظل يضرب بيديه على الباب، ظهر له رجل يلبس عِمامة، يشيح له الرجل:

- امشي يا "مدعوج" من هنا بدل ماطين عيشه أهلك.

لم يفهم "الصغير كامل" صاحب العشر سنوات من جملة الرجل شيئًا .. من بعيد لاحظ بعض الأنوار بداخل "الفيلا". تهللت أساريره ..لابد أن آمال بالداخل، لم ينتظر ذهاب "الرجل أبو عمه" بل ركض لجانب السور، وخلال ثوانٍ كان داخل أسوار الفيلا، أمام بابها الداخلي تمامًا.

لم تكد أصابعه الصغيرة تلامس الجرس حتى كان يقف أمامه رجل أسمر له هيبة، قال كامل ببراءة وجرأة:

- عايز ادخل أطمن على آمال.

أمسكه بهدوء المهندس "موسى حكيم"، نادى حارس "الفيلا" "الرجل أبو عمه"، قال له بهدوء:

- خد الولد وصله لبيت ابوة وقوله ابنك مصابوش خدش زي ما موسى باشا وعدك، بس انت المسئول قدام الباشا.

أغلق موسى حكيم الباب ببطء ، أمسك "الرجل أبو عمة" الصغير كامل من قفاه، ماكاد يصبح خارج باب "الفيلا" الخارجي حتى رأى أباه أمامه، الماء يغطيه بكامله، تختلط به مياة الأمطار مع مياة عرق الخوف، يلهث أبو كامل بشدة مع انحناءة فكأنه يطول ويقصر .. سأله الحارس أبو عمة:

- انت أبوه؟

هز " أبو كامل" رأسه علامة الإيجاب، دفع الحارس كامل في ظهره بقوة فالتقفه الأب على بعد خطوتين.

قال له الحارس:

- ابنك مصابوش خدش زى ما موسى باشا وعدك. بس انت المسئول قدام الباشا.

أطْبق أبو كامل على رسغ ابنه، أغمض عينيه حانيًا رقبته إلى الأسفل، يتذكر كامل ذلك المشهد جيدًا كأنه أمس، لاشك أن أباه

عرف بما سيحدث له.

بالنسبة لكامل وأبيه كانت هذه الجملة أشبه بنهاية حياة، وبداية حياة أخري .. بل بداية شبه حياة!!.

قال الصغير كامل لأبيه:

- بس انا عايز اشوف آمال.

هنا استدار أبو كامل حتى صار مواجهًا لكامل تمامًا، نظر إليه بعين يختلط بها الغيظ والكره والحب.

- يابن الكلب افهم بقى.. الزفتة دي... ماتت، أفهم ... ضيعتها وضيعتني .. منك لله ... ياريتني ماجبتك... ضيعتنا كلنا.

ينظر كامل إلى سقف غرفة بهية غير مصدق... لا يعي الجملة. ماتت!! مات... لا.. لم يحدث.. بل لا يفهم شيئا...

أمام غرفته تمامًا يَتَسَحَّب خائف، ينظر لأبيه فيجده مفتوح العينين، متشبثًا بسيفه الصغير ناظرًا إلى السقف في عالم آخر، أشار لأبيه بيده بسخرية فما حرك "كامل" ساكنًا، تَسَحَّب "خائف" إلى الحمام، نظر إلى شبّاكه الصغير جدًا... شباك لا يكمل طول ضلعه أربعين سنتيمترًا...

خلال عشر ثوانٍ كان رأس خائف ونصفه العلوي خارج الشباك، ينظر للأسفل فيجد الأرض على بعد أكثر من خمسة عشر مترًا،

يتشبث بـ "ماسورة" تمر في "المَنوَر" بكلتا يديه، يترك نفسه ليهبط ببطء حتى يرى من فُتحة صغيرة شقة جيرانهم بالأسفل.

بخفة وجرأة يدخل من فتحة الحمّام، بهدوء يخطو حتى يجد نفسه أمام مقبض باب شقة جيرانهم، يتذكر أنف سلمى الدقيق، يسمع أباه يصرخ من الدور الأعلي:

- خايف ابني راح فين يا بهية.. وديتي الواد فين يا ولية؟

فما كان من خائف إلا أن نزل يتقافز على الدَرَج، لمح خيال أبيه يركض خلفه على السلّم.

تسابق الأب وابنه يجريان وراء بعضهما في الشارع، يجري خائف بسرعة تسابق الريح في ظلام الفجر، وخلفه بأمتار كامل "ببجامته" و"شبشب زنوبة"، يتصبب عرقًا ويصرخ في خائف.

- ارجع يابني، ارجع يابن الكلب، متضيعناش...

كأنه ورث عن أبيه كل شيء حتى ألفاظه، أما بهية؛ فما كان منها إلا أن بدأت بالندب الانثوي الخالص، يسمع الجميع صرخات بهية الـ"يالهوي" و الـ"ياخرابي"، تمامًا مثلما سمعوها يوم صعد إليها خائف أول أيام عيد الأضحى مغطى بالدماء.

كل من في طريقه لصلاة الفجر يرى كامل يركض وراء ابنه، يصرخ كامل بهم :

- الحقوا معايا الواد، ابني هيموت.

فيركض بجانبه من كان به القليل من الوعي والطاقة، حتى صار المشهد ساخرًا "خزعبليًا":

يركض خائف بفانلته الداخلية بعد أن خلع عنه قميصه من شدة الحرارة، وخلفه على مسافات متفاوتة يركض ما يقارب العشرة أشخاص صارخين جميعًا في الطفل:

- استني يا واد.. رايح على فين.. ارجع يا خايف

لا يضحك خائف هذه المرة، بل في عينيه إصرار رهيب بالذهاب إلى صديقتيه...

يتذكر جيدًا.. "المحلة".. "سوق اللبن".. "خوخة اليهود".. معبد "حاييم الامشاطي".. لا يفهم كثيرًا لكنه ماضٍ في طريقه... ومعه صديقته .. "دارتي".

***

(٢٣)

﴿ قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًاۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي
هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا
هُمْ يَحْزَنُونَ ٣٨ ﴾

[البقرة: ٣٨]

قرد رشيق يتنقل من فرع شجرة لآخر، لا تكاد عيناك يلتقطان خياله، ذلك هو تمامًا ما حدث مع القرد "خائف".

يركض بشكل "زيجزاجي" . يتوقف ليغير اتجاهه فجأة، وفي دقائق كان غائبًا عن أعين كل الملاحقين.

توقف كامل، سقط منه جسده على الأرض، سأل نفسه السؤال الذي خشي منه:

إلى أين يلاحق ابنه؟!

ليست المصيبة أن ابنه هرب إلى اليهود ليصنعوا وليمة بدمائه، لكن المصيبة الكبرى أنه لا يعرف إلى أين هربت الوليمة.

صعد كامل إلى شقته، أسئلة رصاصية تطلقها بهية من مدفع فمها.

- يعني ابني ضاع خلاص ومش هشوفه تاني؟

طب هنعمل ايه دلوقتي؟

كعادتها تختم وصلتها الصراخية بـ:

- ربنا ينتقم منك يا "يافتة" يابت الكفرة.

غريب جدًا بأن تسبها بهية بأنها بنت كفرة كأنها تعيرها، وهي تعلم أن "يافتة" نفسها من الكفرة.

قبل شروق الشمس، يصحو الدكتور "عزمي" على هاتف صارخ:

- خايف هرب.

توقعها عزمي فلم يتبقَ على عيد الغفران اليهودي (الثامن من أكتوبر) إلا بضعة أيام قليلة؛ فإن لم يهرب خائف الآن، متي يهرب؟.

بسرعة البرق، يسقط عزمي في ملابسه برغم ذراعه المخلوعة، ثم يذهب إلى كامل.

كل لغز محلول إن كان هناك طرف لخيط رفيع فيه، تتبع الخيط أمر مرهق لكنه مضمون. أما لغز "مكان هروب خائف" ؛ فليس هناك من طرف للخيط، بل ربما لا وجود للخيط نفسه.

***

يصل أخيرًا خائف إلى محطة القطار، بين أجناب البشر وأرجلها يشق طريقه ملتويًا شق الثعبان، سأل امرأة ودود يقترب منها طولًا:

- امتي القطر اللي طالع عالمحلة؟

خائف يعرف جيدًا إلى أين يذهب؟ فبمجرد أن رأي على التلفاز مشهد المبنى الذي يراه مع "دارتي"، والمذيعة تقول:

- "يوجد معبد "خوخة اليهود" في منطقة سوق اللبن في المحلة".

تخلى عقله عن كل شيء إلا الكلمات القليلة "سوق اللبن"، "المحلة".

نظرت له المرأة التي سألها بتعجب، فأشار لها بيده إلى مكان ما بعيد وقال :

- أصل ابويا واقف هناك وقاللي اسألك.

أخذت المرأة الطيبة يده ناحية عمال القطار لتسألهم.

- هيقوم من الرصيف اللي جنبنا الساعة تسعة يعني بعد ساعة يا حبيبي.

التقط خائف مكافأة كذبته، ثم جري بأقصى سرعة له عكس اتجاه الأب المزعوم، فتحت المرأة فمها دهشة وأكملت طريقها.

يقف القطار على رصيف المحطة، يركض خائف بسرعة، يصطدم برجل عريض الجسد، يكاد الرجل يسقط، لكنه يستند إلى عمود على الرصيف، يتعجب الرجل من نفسه وما آلت إليه صحته منذ أن أتم الأربعين.

أما خائف في تلك اللحظة؛ فيتعجب أيضًا مما آلت إليه صحته منذ أن رأى "دارتي"؟

***

في قطار قديم بدأ حركته منذ دقائق، يجلس "خائف"، يقف أمامه رجل ذو رداء أزرق معه قلم وبعض الأوراق، يسأله الرجل بغضب غير مُبَرَر:

- فين امك وابوك يبني؟

كعادته يشيح خائف بيده في أول اتجاه يأتي بخاطره:

- هناك اهم.

فيأتي رد عامل التذاكر سريعًا غاضبًا:

- طب ايه اللي مقعدك هنا؟، روح اقعد جنب اهلك يالا.

نظر خائف للرجل بثبات، عامل التذاكر نظر له بعناد، فما كان من خائف إلا أن قام ثم اتخذ من ذلك العامل عدوًا.

يجلس في كرسي فارغ، وبعينه الواسعة المدى التي تلتقط كل الرؤية إلا زاوية صغيرة خلفه، لكن بها غيمة رمادية ناحية اليمين، يستمر في ملاحظة عامل التذاكر حتى إذا اقترب قام خائف من مكانه، وانطلق في الاتجاه الآخر.

بعد ساعتين، يهديء القطار من حركته، فجأة يسقط عامل التذاكر، ويُسمع صوت اصطدام جبهته بالأرض، يطبع خائف بقدمه اليمنى رسمة أسفل "حذائه" على قفا الرجل، يمر خائف من فوقه سريعًا، وبخفة حركة وظِل... يشق طريقه بين البشر مستخدمًا مساند المقاعد .

بمجرد أن يخرج خائف من باب القطار... يضحك بصوت عالٍ على عامل التذاكر، والحقيقة أن خائف نفسه لا يعلم هل مَد قدمه عمدًا ليسقط عامل التذاكر، أم أن قدمي الرجل اشتبكت بقدمه دون قصد؟ لم يهتم أيضًا أن يعرف.

ينظر حوله، هذه هي المحلة، المدينة التي لا يعرف عنها إلا ثلاثة أشياء كما سمع من "الولية اللي في التليفزيون". ورث هذه الكلمة عن أبيه، "ولية".. يقولها أبوه على كل النساء ولبهية أيضًا.

لمح بعيدًا عامل التذاكر "الرخم" فما كان منه إلا أن ركض ناحيته، تعمد أن يراه الرجل راكضًا ثم استمتع بسماع صراخه من الخلف:

- لو جبتك هنفخك ياعـ...

حاول الرجل اللحاق بخائف لكن "ولا ألف يلحقوه".

طفل صغير يحمل بين أضلعه قلبًا بكرًا لم يتعد التسع سنوات، ينطلق في مدينة غريبة عنه، لا يعرف من أين يبدأ وأين يريد الوصول، سأل خائف أول امرأة تقابله:

- هو فين "سوق اللبن" يا طنط؟!

ضحك، أراد أن يقول لها يا "ولية" كما عوّده أبوه، لكنه تراجع مركزًا فقط على سوق اللبن.

دلته المراة على الطريق... تنقلات من مواصلة لأخرى، في تلك اللحظة يبدو خائف كطفل شوارع، خلع قميصه مرة أخرى ليمشي مرتديًا "الفانلة الحمالات"، باتجاه منطقة "سوق اللبن" تلك المنطقة العشوائية الملآنة بآثار مدفونة يبحث عنها الجميع... أملًا في الانتقال من تراب الفقر إلى ثراء الآثار.

كَثر الحفر في أراضي المنطقة -تنقيبًا عن الثراء- جعل الارض منحنية ساقط بعضها عن مستوى الشارع، بعض العمائر مهدمة وبعضها مائلٌ يقف على قدم واحدة منتظرًا أن يسقط كإخوته.

يمشي خائف بين تلك الأبنية، يتشمم نفس الرائحة النُحاسية للدماء في رؤاه مع "دارتي"، كأنه يقترب، لكنه لا يعرف مما يقترب.

يصل أخيرًا، هو نفس المبني الذي رأى صوره في التلفاز، والأهم أنه نفس المبني الذي رآه مع "دارتي" .. إذَن، هو لا يحلم كما يقولون، تأكد خائف أنه ليس كباقي الناس، يقول لنفسه:

"ليس الحلم خزعبلات كما يقول أبي، ولا هو رسايل من الله والشيطان كما تقول أمي، بل أنا لا أحلم من الاصل."

ها هو ذا أمام نفس الباب العريض المقوس، الحوائط المهدمة والقمامة تملأ المكان من الداخل، معبد "خوخة اليهود".

على سور المعبد فجأة يشتبك شابان، يصرخ أحدهما بقوة، أما الثاني الهادئ، فيخرج مطواه ثم يجرح بها الأول في جانبه، يصرخ الأول بعنف ويسقط على الأرض.

تجمع الناس حوله للقيام بدور "ممرضة خائبة"، تتبلل الأتربة بالدماء، وتلتقط أنف خائف رائحة الدماء النُحاسية الخشنة... مخلوطًا بها رائحة القمامة.

استفاق خائف من سكونه الذي دام ساعةً، جلس بجانب المعبد على أقرب رصيف منتظرًا اللاشيء... يا للأسف! لم تنشق الأرض لتلد "سلمى"، ولم تظهر "دارتي" صامتة كعادتها بلونها النبيذي الحبيب.

هل تخلت عنه "دارتي"؟ هل خانته بعد تلك الأيام من اللذة والألم والحياة معه،.. فكر أن يرجع إلى أبيه وأمه، يعتذر لهما عن خيانة "دارتي"، يقول لهما:

- عندكو حق، "دارتي" مطلعتش صاحبتي، وأنا عندي ملبوسة.

***

لا تكاد بهية تجلس في حجرتها حتى تفر منها، تهرول تجاه اللاشيء بحثا عن اللاشيء، حتى إنها نظفت –لأول مرة - أرضية البيت المتسخة (بذيل جلبابها) دون أن يطلب منها كامل ذلك.

تمر أمام المرآة فتلمح شعرات بيضاء تختلط بسواد شعرها ، توقفت فجأة، ، لا تصدق ما حدث، ليس لشعرها بل لها، شعرها قاوم اللون الأبيض عشرات السنين، أما هي؛ فهل قاومت شيئًا ما؟!

تبلغ هي من العمر الخمسين، تكبُر كامل بخمسة اعوام، تزوجت قبل الأربعين بسنة واحدة.

عندما كانت فتاة في الثامنة عشر، سعيدة بها أمها لأنها ناجحة إعدادية وقد الدنيا، ما عليها إلا أن تجلس في بيت أهلها و "تتستت"، لتجد عريسًا يبحث عن عروس "لُقطة" معاها إعـدادية.

لم يقابل أم "بهية" إلا مشكلة واحدة، عود "بهية" الطويل "الممصوص"، فقد كانت بهية وقتها بعكس والدتها الممتلئة، كانت فتاة نحيفة، لها ذراعان نحيفان ورقبة طويلة ضيقة.

لاشك، أن أحدًا لن يرضى أن يتزوج فتاة كهذه، لكن ليست هذه من الهموم الكبيرة مادام الله قد خلق مع الفتيات "مِفَتَّقَة"... ذلك المزيـج العجيب الذي يستخدم لتسمين البشر.

مثل البطة التي يتم "تزغيطها"، تجلس بهية أمام "الطبلية"، نفس الطبلية التي تجلس أمامها الآن قبل أن يشرخها الزمان، تحشر "المفتقة" في فمها -لقمة تلو الأخرى-.

أشهُر متتالية "تَفَتَقَت" فيهن الفتاة، وامتعضت معدتها ألمًا من

ملمس المفتقة، ومازال صدرها باستقامة طريق سريع بلا "مَطَبَّات"، وردفاها يقسمان ألا تنحني جدرانهما أبدًا.

ذلك اليوم شديد الحرارة من شهر "مايو"، تنزل الشابة بهية من منزل إحدى صديقاتها مساءً، في الشارع تتوقف على مشهد عجيب:

يقف الكثير من الشباب العُرَاة من أعلاهم، أُخَرون مُكَوّمون على التراب تحتهم، على أجسادهم جميعًا بقع من الدماء.

مشت الشابة الصغيرة خطوتين حتى كانت خارج البوابة، توقفت فجأة.

اقترب منها شابان عاريي الصدر، تراجعت خطوتين إلى الوراء حتى كانت في فُتحة البوابة تمامًا، انقض عليها الشابان، دفعاها بقوة إلى مدخل العمارة، دفعة لا تتناسب مع جسدها النحيف.

المدخل مظلمٌ تمامًا، مظلم كظلام الموت في أعين الأحياء، صرخة ضعيفة تفلتت من بهية ثم كُتمت، تمر دقائق حتى خرج أحد الشابين ضاحكًا يحملها بين ذراعيه راميًا بها في وسط الشارع.

لم تبكي بهية بل ارتسم على ملامحها ذهول وخوف هائلان، "جلابيتها الصفراء" ذات النقاط الحمراء ازداد احمرارها من أثر الدماء، أو ربما هي ما تهيأ لها ذلك، فبمجرد أن نظرت إلى ردائها تأوهت آهة، حاولت أن تكون صرخة ففشلت.

خمس دقائق، تمامًا خمس دقائق وأربعون ثانية سُرقت من الزمان، ظلام في مدخل العمارة جعل من المستحيل لأحد أن يتبين شيئًا مما حدث حتى كاتب هذه الكلمات، ما حدث في تلك الدقائق

القليلة لا يعرفه أحدٌ إلا الرجلان عاريي الصدر وبهية والإله.

ما حدث بعدها كان عجيبًا بحق، تلك البقع من الدماء على "جلابيتها الصفراء" التي رآها القليل من الأشخاص جعلت الجميع يعتقد أن الشابة ذات الثمانية عشر عامًا قد تخطت حد العذرية؛ لتنطلق في غابات الأنوثة المحرمة.

بعد مدة وجيزة جدًا من تلك الحادثة الشنيعة لبهية، وبرغم من امتناعها عن "المفتقة" والطعام كله، بشكل فجائي شرخت أنوثتها أرض جسدها الطينية ونبتت، شيء تتمناه كل فتاة وأمها، صارت بهية تمشي في "الحِتة" ناهِدة الصدر، متموجة الجسد بشكل شهواني جديد.

قد كبرت الفتاة أخيراً، لتصير من جميلات "الحتة" وأكثرهن أنوثة، ها هي ذى السماء تنشق شقوقًا كثيرة صغيرة؛ لتمطر "عِرْسَان" فتتلقف بهية منهم أيهم تريده.

بشكل عجيب لم يحدث ذلك بالمرة، بل أقفلت السماء فتحاتها الصغيرة "بأقفال حديدية"، غلقتها الشياطين بنفسها.

بشكل متَخَفٍ وظاهر، تكلمت النساء عن أن سبب استدارة جسد بهية هو حادثة "الجلابية الصفراء" الملطخة بالدماء.

ظلت أم بهية "شفيقة" تقسم لكل أم عندها ابن "على وش جواز" أن ابنتها مازالت بكرًا، تؤكد لها الأخرى أنها تصدقها ثم تزوج ابنها لبنت أخرى... أقل أنوثة كثيرًا من بهية.

- وهو يطول زي بنتي، الواد المعضم ده.

تقولها الأم "شفيقة" دائمًا بعد أن يتزوج أحد شباب "الحتة" من أبناء جاراتها.

هذا الذي يسمى بالقدر خبيث جدًا، استدار جسد بهية في وقت خطأ، لو تقدم سنة في استدارته او تأخر سنة فلربما تغيرت حياة بهية إلى الأبد.

تمر السنوات، والسماوات السبع مغلقة لا تمطر أي عرسان، حتى أتى فارس أسمر على حصانه الأبيض، مطرود من جنة عائلته البرجوازية.

فارس نحيف يعاني من سوء تغذية، له ندبة في أنفه، ويصغرها بخمسة أعوام، كانت بهية قد قاربت الأربعين من عمرها، وحلم أمومتها الهش يتساقط، تلقف الفارس "كامل" حلمها قبل أن يتهشم ليخلق منها أمًا.

يقال إن الانسان يمر أمامه شريط حياته قبل وفاته بلحظات، خطأٌ هذا، فبهية مر أمامها كل هذا وهي واقفة أمام المرآة، تتأمل شعيرات برائحة زيتية، ولا تنوي الوفاة قريبًا.

***

لم يكد خائف يعطي ظهره للمبنى المهدم الأشبه بـ"المزبلة"، حتى أتى بضعة رجال يرتدون رداءً أصفر مُوَّحَد، لحظة واحدة وتلتقط أنف خائف رائحة حلوة تمتزج برائحة القمامة النتنة؛ لتصنع رائحة عجيبة.

لم يكد يمر نصف ساعة حتى اجتمع رجال آخرون، هذه المرة

ليسوا صُفرًا بل رجالًا "سُودًا"، يبدو على غالبيتهم الوجاهة الشديدة.

يدخل الرجال إلى المبني المهدم، يتحدثون ويشيرون أمامهم، أحدهم له لحية طويلة رمادية مدببة، ويلبس سلسلة فضية عليها علامة "نجمة سداسية" متوسطة الحجم، تشبه تلك "النجمة" الذي كافأته بها مُدَرِّسته في المدرسة يومًا ما.

بينهم رجل يعرفه خائف، يفتح الطفل عينيه إلى آخرها، يُدهش، هو نفس الرجل الذي رآه في ذلك الحوش الواسع الممتليء بالأطفال العُرَاة مع "دارتي"، رجل عجوز يمتليء وجهه بالتجاعيد، أسمر البشرة، غليظ الملامح، وقتها رآه مع رجال آخرين يحيطون بشيء بينهم، ويتشاورون، أما هنا؛ فالجميع يقف حول الرجل كأنه الكعبة، ينظر إليه الجميع وفي رؤوسهم انحناءات إلا الرجل الذي يرتدي سلسلة بها شكل "النجمة".

بعدما أتى الرجال المهيبون، ذهبوا بهدوء كما أتوا، انتظر خائف ساعات ولم يحدث شيء.

في لحظة، قرر أن يمضي من هذه المحلة كلها، نعم، سيترك سلمى ودارتي، يصدق الآن أنه لن يراهما مرة أخرى أبدًا.

نظر لـ "خوخة اليهود مرة أخيرة، لبس قميصه العَفِن، أعطى لخوخة اليهود ظهره ثم انطلق في رحلته عائدًا...

إلى الأب والأم... إلى موطنه... "إمبابة".

(٢٤)

﴿ أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَأۡتِكُم
مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۖ مَّسَّتۡهُمُ ٱلۡبَأۡسَآءُ
وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلۡزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ
ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِۗ أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ
قَرِيبٞ ٢١٤ ﴾

[البقرة: ٢١٤]

بمشيته اليائسة يسعى خائف في طريق العودة، طرق لا يعرفها، حوله "وشوش" غير معتاد أن يراها، والشمس مَلّت منه؛ فبدأت تتوارى وراء الأفق، ليست هذه هي الطرق التي أتى منها.

تزداد رائحة الدماء النُحاسية بشكل غريب، أي دماء هذه؟ يتساءل خائف:

هل هي رائحة دماء الرجل الذي ضُرب بالمطواة عند معبد "حاييم الامشاطي"؟ كيف وهو يبتعد عن المعبد ولا يقترب؟ هل هو يدور حول نفسه؟

قبل صداقته بـ"دارتي" لم يكن يشم الأشياء إلا بشكل ضعيف، أما الآن؛ فيشمَّها بقوة شديدة، خاصة الدماء، وإن كانت بعيدة، بل يتذوقها في فمه بطعمها الغريب، طعم نحاسي بَرِدٌ له مذاق حلو، لكنه مقزز يبعث على القيء.

توقف خائف فجأة، صرخ بعنف ورفع يديه إلى الأعلى وهو يهز وسطه بسعادة... يتقطع نفسه فجأة، يكح بشدة ويبصق، يكاد يتقيأ، يأخذ نفسين عميقين، ثم يستمر في الضحك والصراخ من جديد، يخلع "فانلته العفنة"، يرميها في وجه أول مارٍ أمامه، يستمر في الرقص، ينظر الجميع إلى ذلك الطفل المجنون الضاحك الباصق.

***

أما كامل؛ فيجلس منذ ساعات طالبًا من عقله ألا يعمل، "فلتقل خيرًا أيها العقل أو لتصمت"، تلك الذاكرة اللئيمة تُلِح عليه، النظرة الرهيبة التي رآها في عين أبيه وهما عائدان من "فيلا" صديقته "آمال"، استمر حبس الصغير كامل في شقتهم بالزمالك، لم يمر أسبوع حتى ترك أبوه المنزل، تبكي أمه بغزارة، إخوته الأكبر منه - طلبة كلية الطب- تمتليء أعينهم بقلق وخوف... يسأل أمه:

- هو بابا سافر فين؟

بات الصغير كامل أشهُرًا في شقتهم بلا أب، يشعر بنظرة أمه وإخوته تمتلىء كرهًا، صرخ به أحد إخوته مرة:

- الله يلعنك... أنت شيطان، موتت البت وضيعتنا... أبوك مش راجع تاني، انت اللي هتمشي من هنا...

بالفعل بعدها بأيام قليلةٍ فوجيء بأنه "بيمشي من هنا"، ويذهب إلى هناك، هناك بعيدٌ جدًا عند أحد الأقارب "الغلابة" في أسيوط مسقط رأس الأم.

انقطعت صلة "كامل" بأسرته، وبالزمالك بشكل كامل، الغريب أنه لم يسأل قريبه الغلبان عما حدث لأبيه كأنه يعلم أن الإجابة لن ترضيه؛ تَعَلّم الخوف وقتها من أن يسأل، ربما كانت تلك البذرة الأولى التي علمته الخوف، الأولى وليست الأخيرة.

طالما تساءل:

- لِمَ لَم تكن تتصل به أمه؟

لم يسمع صوتها مرة واحدة منذ ذلك اليوم الذي ودّعته فيه، احتضنته حضنًا عميقًا مؤلمًا غامضًا، اعتصرت عظامه بشكل قاسٍ، كأنه حضن تم غزله من قسوة، حضن يُفَرّق ولا يجمع.

قالت له بعين رطبة:

- البس هدومك عشان هتسافر البلد.

قفزة كبيرة قفزها كامل من الزمالك إلى قرية "نَجع الموسوية". ياله من قدر ثقيل الظِل! أراد أن يسخر من كامل حتى في نَجْعه، أراد أن يذكره بقاتله "موسى حكيم" ما حَيا.

لم ينجح كامل في قفزته الكبيرة تلك، بل سقط، سقط في المنتصف في هوة عميقة بينهما.

يمضي ساعات ناظرًا لسيفه الذي يهدهد قلبه، تحييه فقط ذاكرته التي تربطه بآمال، لم يكن يعرف الصغير كامل كيف يذهب مرة أخرى إليها من نجع الموسوية لكنه ذاهب لا محالة عندما يكبر.

- لِمَ لَم تتصل به أمه؟

يلح السؤال على رأس كامل. يُسْقِط رأسه بين قدميه فتنظر له "بهية" باستغراب...عَلِم الآن أنه لم يمر عليه يوم دون أن يسأل نفسه هذا السؤال، بل إنه سأله لنفسه آلاف المرات، يبدو أن "زره" الأحمر في أعلى قفاه كان عاطلًا عن العمل طوال حياته وهو لا يشعر.

ناظرًا للأمام، يلاحظ كامل -أول مرة- الندبات القديمة على الناحية اليمنى لرقبة الدكتور"عزمي حافظ".

تساءل كامل وهو يتلمس أنفه المعوج:

"هل لكل منا ندباته التي لا يفهمها غيره؟ "

"ترى ما حكاية الندبات في رقبة الدكتور "عزمي حافظ"؟

يداعب دكتور عزمي ندبات رقبته بغرابة، أما بهية فتعود لتجلس مرة أخرى، ومن جديد تأخذ نصف "الكنبة" تحت ندبتها الكبيرة.

***

(٢٥)

﴿ قُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ مِنۡهَا جَمِيعٗاۖ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٣٨ ﴾

[البقرة: ٣٨]

في ذلك اليوم "الأبريلي" المشئوم، عندما رفع "صلاح موسى" الفتاة السمراء من فوق أتربة الحوش تاركة وراءها دماءها المُسالة، كانت الأبقار جميعها تخور إلا واحدة، وتخور قلوب الأطفال إلا واحدة، ذاب قلبها تمامًا، طفلة بيضاء ناعمة الشعر طويلة العين، تمسك في يدها "دببوبَ" صغيرًا يختلط به الطين، ورائحة البول.

منذ نصف ساعة كانت سلمى البيضاء قد تشاجرت مع صديقتها السمراء مجعدة الشعر بسبب "الدببوب" الذي يتشاركانه بينهما، قالت سلمى الملبوسة ذات البشرة البيضاء بقرف للأخرى:

- "إف"... ايه الريحة المقرفة دي؟!.

تنظر سلمى السمراء إلى الاسفل بخجل، تتخبط خصلات شعرها المجعد بعضها بأخرى من أثر الرياح الشديدة، ثم تناول صديقتها "الدببوب"، تقترب سلمى الملبوسة بأنفها قليلًا من الدببوب، تبعده مرة أخرى، تقول:

- انتي عملتي ايه في "الدببوب" بتاعي؟، ريحته مقرفة.

تنظر لصديقتها السمراء بعين مغتاظة، رائحته عفنة جدًا وعليه طبقة من الطين، قالت لها "سلمى" السمراء بلهجة اعتذارية:

- معلش أصل يوسف أخويا شخ عليه، ووقع مني في الطينة.

استشاطت الأخرى منها غضبًا فخطفته بيدها الصغيرة بعنف. تلك اليد التي صارت لا تتحرك الآن، قالت لصديقتها:

- ده بتاعي، متكلمينيش تاني خالص، أنا بكرهِك.

دفعتها في صدرها فكادت تسقطها، تلقت سلمى السمراء

الدفعة وركضت بعيدًا إلى البقرة النبيذية، هادئة الحركة معدومة الصوت.

وقفت أمام البقرة النبيذية تمامًا، غير خائفة أن تَرفُسها. قالت تشكو لها:

- يرضيكي كده يا "زئردة" ؟

بكت الفتاة فتلقفتها البقرة بلا صوت.

بعدها، وقفتا الصديقتان في الطابور الصباحي الممل، يفصلهما الصف كله بعد الخصام، يضحك التلاميذ على سلمى البيضاء، تلك الفتاة الحريرية الشعر، الممسكة بـ "الدبدوب" ذي الرائحة النتنة، يضحكون بخبث ويبتعدون عنها، قال أحد الأولاد:

- انتي عملتيها على روحك يا سلمى؟

ما كان من سلمى إلا أن خطت خمس خطوات للأمام؛ لتدفع صديقتها السمراء ذات الندبة في رأسها بقوة، فتسقطها على الأرض.

قامت الطفلة السمراء، رجعت إلى الوراء خطوات لتأخذ بثأرها، وما كادت ترد الدفعة إلى الصديقة الحبيبة حتى كان الأستاذ "علام العبد" يصرخ بأعلى صوت له:

- تعالي هنا يا بت.

ذُهلت "البت" وتسمرت مكانها، لا تريد أن تنظر ناحية أستاذها الذي تكرهه بشده، نظرت لصديقتها سلمى التي تمسك بـ "الدبدوب" بتعلق.

هذه كانت أصعب لحظات حياتها، بل أصعب من لحظة موتها الهائلة، صرخ الأستاذ "علام العبد":

- اخرجيلي هنا بقى يا "زفتة"، بتعملي ايه؟

لم تحملها قدماها إليه، بل هي التي كانت تدفع قدميها بيديها، بعد أقل من نصف ساعة كانت تحفر بيدها حفرة صغيرة في التراب لتواري شيئًا ما، ويحفر هو لها حفرتها أيضًا.

بعدها صعدت سلمى البيضاء إلى فصلها، تكاد تجن، فكرت:

- هو أنا كل ده كنت بحلم؟!

كل شيء أمامها عادي! مدرس يشرح، وتلاميذ تستمع بعدم اهتمام، مصباح السقف يرتعش كعادته.

يلاحظ المدرس رائحة الدبدوب "البولية"، يسأل بسخرية:

- مين المقرف اللي "شخ" على روحه؟.

لم تكد سلمى تسمع الكلمة حتى قالت بصوت حاسم:

- أنا.

تنفجر شفاة الطلاب بضحكات جنونية، يقول الأستاذ:

- ومتفشخرة أوي بنفسك!.

تكمل سلمى كأنها لم تسمعه:

- عايزة أنزل الحمام.

- تنزلي ليه مانتي هببتيها خلاص؟!

قالها المدرس لتنفجر الضحكات من جديد، تختلط بضحك المدرس نفسه، بحسم تكررها سلمى:

- عايزة أنزل الحمام دلوقتي.
- طب استني...

نصف ساعة كاملة مرت، حتى سَمَح المدرس لسلمى في النزول.

وسط الحوش تعثرت قدماها لتسقط على بطنها أمام المشرفة العجوز، تحاول المشرفة أن تساعدها على النهوض؛ فلا تنهض، بل "تُرَفِس" الطفلة بقدميها ويديها اللتين يتحركان بشكل جنوني أسفلها، أخيرًا، وقفت سلمى مرة أخرى ضامة قبضتها اليمنى بقوة، "نغزتها" المشرفة العجوز في كتفها:

- مش تحاسبي!!

بمجرد أن دخلت سلمى البيضاء ذات الشعر الناعم إلى الحمام، فتحت قبضتها لتجد فيها الخاتم الفضي الذي نبشت الأرض منذ ثوانٍ لتخرجه، خاتم صديقتها "سلمى" السمراء الذي أهداه إليها صديقهما "كريم".

كم تمنت بالأمس أن ياتي لها"كريم" بواحد مثله!، دائما تشعر أنه يحب سلمى السمراء أكثر منها، نظرت للخاتم على راحة يدها بذهول، لم يكن ما حدث لصديقتها حُلمًا، إذن.

تُرى أين صديقتها السمراء الحبيبة الآن؟

(٢٥)

﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾ ﴾

[البقرة: ٢٥٧]

تأكد خائف أن "دارتي" مازالت معه، لم يكن له القدرة على الشم مثل ذلك قبل أن يقابلها هي وسلمى.

يركض دقائق عدة باتجاه معين، أنفاسًا عميقة يأخذها، يلاحظ أن الرائحة قد صارت أهدأ قليلًا؛ فيتراجع منطلقًا بأسرع ما عنده في الاتجاه الآخر، يتخبط بالبشر دون أن يسقط أو حتى يهتز، أنفاسًا أخرى يأخذها... أخرى وأخرى، يلاحظ أن الرائحة النُحاسية أقوى، فيستمر في نفس الطريق... يتتبع اتجاه رائحة الدماء القوية بتصميم.

بعد ساعات من الركض، الشم، وتغيير الاتجاه، ثم إعادة المحاولة، ليتأكد أنه في الاتجاه الصحيح، صارت الرائحة أشد كثيرًا، رائحة نفاذة معدنية قبيحة لا تُخطأ، لكن قدمه صارت ضعيفة جدًا، لا تقوى على حمله.

في حديقة مهجورة جلس ليستريح، لاحظ بعض المحالٍّ المغلقة، ركض ناحيتها كأن رجله قد نسيت ضعفها، على واجهة أحد المحالٍّ تحت المصباح الضعيف لاحظ الملابس المعروضة، في جانب المحل شباك صغير، أمسك قطعة حجر... هَشَّم بها الزجاج بهدوء وثقة، وفي ثوانٍ كان داخل المحل يُجَرب الكثير من الملابس في الظلام، بعد ساعة، خرج خائف من نفس الشباك يرتدي ملابس جديدة بدل التي لم يشترِها له أبوه في العيد، يركض بسعادة...

بعد أن نام ليلته في الحديقة المهجورة، يفتح عينيه صباحًا، ينظر إلى ملابسه فيجد "تيشيرت" بلون سماوي، وبنطالًا أسود

و"كوتشي" يمتزج به اللون الأبيض والأزرق، يضحك خائف مستعدًا لاستئناف رحلته.

يقلب وجهه وقدميه في كل الاتجاهات راكضًا، بحثًا عن مصدر الرائحة النُحاسية المهيبة، رائحة الدماء.

تتغلغل الرائحة إلى صدره، فيشعر بها كشيطان يكاد يتلبسه، ساعات أخرى تمر، العرق يهطل من جسده ووجهه، مر يومان لم يأكل فيهما، بصعوبة جدًا يأخذ أنفاسه، يسقط للأسفل ويتقيأ ما في معدته الذي هو اللاشيء...

على قدميه يقوم، يخلع "تيشيرته" الجديد... صارت الرؤية صعبة جدًا في عينيه، غيوم رمادية تغلف كل شيء، لكنه يتقدم أكثر، خطوات يقطعها دون تفكير كأنه مجذوب، يركض للأمام ويده بجانبه كالمجنون، يتقيأ اللاشيء مرة أخرى، يختنق خائف تمامًا، يسقط فجأة على وجهه.

***

الأيام المتشابهة تُسرق من أعمارنا، هي أيام خبيثة تُخَدرك؛ فلا تستطيع التفريق بينها. في شقة بهية، يجلس الثلاثة، كامل وبهية والدكتور "عزمي حافظ" نفس جلسة الأمس تمامًا، وكنوع من التغيير ولتفريق اليوم عن الأمس يقوم كامل ليشرب، يجلس مرة أخرى وسط ذبذبات قراءة سورة البقرة.

فجأة يختلط صوت عالٍ بصوت قاريء سورة البقرة، يشعر كامل بشيء صلب تحت مؤخرته، يمد يده فيجد "ريموت التلفاز"

تحته، يغلق التلفاز الذي انفتح خطئًا، ويعيد إسناد خده إلى قبضته بيأس.

فجأة يقف كامل، يفتح التلفاز مرة ثانية، يقترب منه، يحني جسده ناحيته، بل يرتعش جسده بغرابة.

دقيقتان من الصمت التام وذهول يرتسم على وجه كامل، حتى أن بهية صارت تناديه بقلق:

- كامل!.. جرالك حاجة!!.

نَظَر فجأة ناحيتهما (بهية وعزمي حافظ) وقال بنبرة عميقة مقرها الصدر:

- عايز اعرف القناة دي كان عليها ايه ليلة ما هرب خائف قبل ماينام علطول؟.

شرح لهما كامل ما يدور برأسه، أخرج الدكتور "عزمي حافظ" هاتفه من جيبه بكتفه المخلوعة، كأنها لم تخلَع منذ أيام. لم تمر ساعة حتى قال الدكتور "عزمي حافظ" بحماسة:

- تعالى معايا، يا أستاذ كامل.

يدخلان أحد المباني الكبيرة، يناول عزمي رجلًا فارع الطول "فلاش ميموري"، انتظر عزمي وكامل بعض الوقت، ليمد الرجل إليهما يده بنفس "الفلاش ميموري"، أخذها عزمي بيد مرتجفة، ثم خرج مسرعًا متجهًا إلى شقته بالسيدة زينب ومعه كامل، يضع "الفلاش ميموري" في جهاز "اللاب توب" الخاص به، ترتجف قلوبهما، وتتخبط في الأضلع... حتى تكاد الأضلع تنكسر.

قال لهما مُعِد البرامج، الرجل فارع الطول، أن البرنامج الذي سألا عنه بدأ الساعة العاشرة إلا ربعًا تقريبًا لينتهي في الساعة الحادية عشرة إلا ربعًا.

اليوم عندما جلس كامل على "ريموت" التلفاز" بالخطأ، تذكر خائف عندما كان يشاهد قناة "تليفزيونية" غريبة ليلة هروبه، شعر به وقتها متجمدًا أمامها كمسحور، انتهى البرنامج الذي لم يركز معه كامل وقتها، ليذهب خائف بكل هدوء نائمًا، تعجب كامل يومها، لم يكن خائف هادئًا قطُّ هكذا بل متمردًا.

على جهاز "اللاب توب" الخاص بعزمي، يشاهد كامل وعزمي البرنَامَج الذي شاهده خائف قبل هروبه، تقول المذيعة:

- تشاهدون الآن معبد "حاييم الامشاطي" أو ما يعرف بـ "خوخة اليهود"، مكان مقدس قصده الحجاج اليهود لمدة ألف عام، يتحول إلى ذلك المشهد المقزز الرائحة.

ينتفض عزمي من مكانه، يقول بقلق وحسم:

- لازم نسافر حالًا يا كامل، خايف ممكن اليهود يضحوا بيه في أي لحظة.

***

بعد ثلاث ساعات، يقف عزمي وكامل أمامه تمامًا، أمام معبد "خوخة اليهود"، ينظران إليه، حوائط مهدمة وسط منطقة عشوائية، الباب العريض الذي لا يدخله أحد، ظلمة شديدة، من الباب يمران، يبحثان عن شيء ما.. لا شيء.. أبواب المعبد نفسه مغلقة، مجرد حطام معبد وخراب.

ما صار خرابًا حقًا ليس المعبد، وإنما الأمل الذي رُد إلى كامل وعزمي، من النوافذ يظهر كل ما بالمعبد جامد، ميت، مظلم... لا يعرفان ماذا يفعلان!

في مكانٍ آخر، يستفيق خائف فيجد حوله رجلين، يسألانه:

- انت كويس؟

يفيق رويدًا رويدًا، يجرجر قدميه إلى الخلف ناظرًا إلى الأعلى، حتى تسمرت عيناه على أسوار وبوابة كبيرة، هي البوابة نفسها التي رآها أكثر من مرة، لا يصدق عينيه.

أمام بوابة طلسمية سوداء وقف خائف مرتجًا مهتزًا.. تطوحه النسمة الخفيفة من هواء الصيف للأمام والخلف، لو رأى أحد "خائفً" لظن أنه سينقلب أو ربما سينكسر، بخطى ضيقة ومتساوية تمامًا يتقدم نحو البوابة، يتسع مجال الرؤية تمامًا في عينيه فيصير رائيًا كل ما حوله.

ترتجف يده عندما تلامس البوابة، يبكي، يلتصق بها بجسده كله. برغم الظلام الرهيب، لكنها تبدو أكثر هيبة وجمالًا مما رآه نائمًا، عريضة قضبانها، وضيقة المسافات؛ فلا يستطيع المرور

بينها.

لم تكن هذه من المشاكل التي تصعب على خائف... بسهولة قفز فوق السور المنخفض ثم قفز مرة أخرى إلى الداخل.

أمامه حوش واسع عريض، نفس الحوش الذي دخله كثيرا مع "دارتي"، نفس الرمال يشعر بها تحت قدميه، صوت احتكاكها بحذائه الذي سرقه منذ ساعات.

ينتفض فجأة لينظر لذلك الركن الذي كانت تتواجد به الأبقار ومنها "دارتي".

لم يرَ أي أبقار حوله، لا توجد "دارتي"، شعر بخيبة أمل امتصت جزءًا كبيرًا من روحه، الرائحة الخانقة تحاصره، يسقط جسده - كتلة واحدة - على الأرض فيصير وجهه والتراب واحدًا.

أما عزمي وكامل؛ فينظران ببلاهة إلى المكان الوحيد الذي يعرفه كامل في المحلة، معبد "خوخة اليهود".

لا يعرف الدكتور"عزمي" لمَ رغب فى أن يضحك بشدة، يقف أمام البقايا المهدمة للمبني الأثري الذي يعرفه جيدًا. كل ما بذاك المبني غامض حتى اسمه، تغلط الأقوال وتختلط في خصوصية سبب تسميته.

من الخوخة؟.

منهم من يقول: إنها زوجة "حاييم الامشاطي".

ومن يقول: إنها اسم المنطقة قديمًا.

تحسس عزمي بأنامله الجروح القديمة على جانب رقبته، ينفرج فمه إلى آخره استعدادًا لضحكة صاخبة، نظر للسماوات العلا، لم يضحك بل بكى، تتساقط بغزارة دموع عينيه، يجلس على نفس السور المنخفض الذي جلس عليه خائف منذ قليل.

أما كامل بجانبه؛ فكان يتفكك قطعة عن الأخرى مثل قطع "البازل"، وكأن جسده صار غريبًا لا يعرف أي عضو فيه الأخر.

هذا هو "خوخة اليهود" الذي صارعا من القاهرة للوصول إليه هو والدكتور "عزمي"، قد وصلا إليه وليس به شيء.

هنا أمسك كامل بيد عزمي الذي تختلط دموعه بعرق عقله، قال له بهدوء مستسلمًا:

- مفيش حاجة هنا تتعمل، بقالنا أيام منمناش، مش قادر افتح عيني، تعالى نروح نبات في أي حتة.

***

(٢٧)

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ ٢٠٤ ﴾

[البقرة: ٢٠٤]

هناك في الحوش الكبير، على بعد أميال من عزمي وكامل، يفتح خائف عينيه ببطء، الحياة مظلمة في عينيه، يرج رأسه لكن الحياة مازالت مظلمة تمامًا، يقشعر قلبه ويرتجف، هل فقد بصره؟، يفتح فاهه بقوة ليصرخ؛ فيفاجأ بحبات التراب تدخل فمه.

هو مازال راقدًا على بطنه إذن، ووجهه في التراب، ينقلب على ظهره ليرى سماءً صافية فيضحك على سذاجته، يتذكر المكان كأنه قد ردت إليه الذاكرة.

أشعة الشمس الحابية في السماء تنعكس على البوابة فتجعلها لامعة مهيبة؛ ترسم منحنى واسعًا في أعلاها، في أعلى نقطة بالبوابة مكتوب:

- **"مدرسة رحمات منزلة الابتدائية"**.

مكتوبة بخط قرآني جميل فتظنها لوحة تستحق أن تُعرض في متحف اللوفر، وقف خائف أمام البوابة بمترين مصعوقًا، تلك الهيبة والجبروت المخيفين.

ما الذي يدفع إلى بناء بوابة مدرسية بذلك الشكل المهيب الخرافي؟

يقف خائف في نفس البقعة التي يرى فيها "دارتي" في رحلاته أثناء نومه، لكن أين هي؟، أين "دارتي"؟

كانت دائمًا ما تقف هنا تنظر له بصمت وتوسل يتخلله إلى أعماق عظامه، ينطلق في الحوش كله راكضًا ملتفتًا إلى كل شبر به.

يصل الكثير من التلاميذ إلى المدرسة يرتدي أغلبهم الزي السماوي - من فوق بنطال كحلي-، وهو بالمصادفة نفس ألوان

ملبس خائف المسروق.

لا يعلم خائف ما يفعل، يقف في صف به الكثير من الأطفال القريبين من سنّه، بمشيتهم المدرسية الناعسة ينطلقون إلى أحد الفصول فيذهب معهم.

على أحد أطراف "التختة" يجلس موزعًا نظرته بين الجميع، مازالت رائحة الدماء في أنفه وفمه لكنَّها أهدأ، ربما تعودها كما يعتادها باقي جنسه!.

فصْل به ما يقارب التسعين طالبًا مكدسين في تختات ضيقة متسخة، وفي مقدمته مدرس ناعم الشعر، يلبس قميصًا أسودَ به لمعة بسيطة، وجيه جدًا، كعادة خائف لا يفهم شيئًا مما يقال، ربما آخر حصة فهمها في فصل كانت منذ عامين.

تخرج الكلمات من فم المدرس ممطوطة "ملّانة"، ينظر له خائف بتركيز، يشعر أنه رأى هذا المدرس من قبل، كأنه يعرفه!.

بابتسامة ساخرة يسأل المدرس "خائفً":

- انت بتبصلي كده ليه؟

يمط خائف شفتيه بلا مبالاة، يسأله المدرس:

- انت اسمك ايه؟

- اسمي خايف.

- أول مرة أعرف أن حد في المدرسة اسمه خايف.

الحقيقة أن المدرس قصد أنه اول مرة يعرف أن حد في الكون اسمه "خايف"، رد خايف بسرعة بديهة:

- أنا في المدرسة هنا من أولى.

أعطى المدرس -الذي يبدو في الأربعين من عمره- ظهره لخائف، واستمر في شرحه بغير اهتمام...

يشعر خائف بالملل و يأخذه عقله إلى أشياء شتى، "دارتي" ، "الدكتور عزمي"، أمه وأبيه، ترى هل تحزن أمه وأبوه الآن؟ هو لا شك عائد إليهما لكن بعد أن يرى "دارتي".

الحقيقة أن حالة أمه وأبيه أسوأ كثيرًا مما تخيل الطفل الصغير، فكامل والدكتور "عزمي" يقفان مرة أخرى أمام معبد "خوخة اليهود" كالسكارى لا يدريان ما يفعلان، وكل مدة تتصل بهية بكامل "هاتفيًا" لتطمئن، فيطمئنها زوجها أن كل شيء:

- زي الزفت يا بهية، ومبقتش فاهم حاجة.

فتش المكان شبرًا شبرًا هو و الدكتور"عزمي"، لم يجدا به شيئًا غريبًا.

ضحك عزمي على سذاجته، أيَعتقد أن يأتي لليهود فيهدون إليه "خائفً" في ظلام الليل؟، يفكر في أن هذا المكان المهدم هو بالطبع إشارة لمكان آخر، يسمع صوت صرير خفاش، يرتجف بشدة ويقشعر بدنه، ليس بسبب صوت الخفاش، بل من فكرة لعينة أتته، همس لنفسه:

- تبقى مصيبة لو خايف جيه هنا، واليهود استدرجوه لمكان تاني.

***

تحولت حياة كامل وعزمي إلى حياة "من المسجد للمعبد ومن المعبد للمسجد"، يجلس الدكتور"عزمي" في المسجد يناجي ربه ليعيد ملء إناء جسده من الأمل، ثم يخرج إلى المعبد فيُفرغ ما امتلأ من الأمل.

أما خائف؛ فقد صارت مدرسة "رحمات مُنَزّله" بيته لمدة أيام، يدخل الفصول، يسمع شرح المدرسين ولا يفهم، يذهب لمكان "دارتي" ويجلس... يبيت بالمدرسة دون أن يراه أحد، ينظر إلى البوابة الطلسمية بشغف.

يسعى هائمًا... متخلية عنه روحه الخفيفة؛ فكأنما صار عجوزًا كصاحبته "يافتة"، تري أين هي؟، آخر مرة زارها لم تكن في بيتها، أهي بخير أم ماتت؟؛ فأمه تقول عنها دائما إنها "وليه على وش موت."

سلمى!!.

أمامه بمترين، على كرسي ذي عجلات، ناظرة إلى الأمام تمامًا، ينقبض قلبه بشدة، وخصلات شعره المجعدة تقشعر تقديرًا لفتاة بيضاء، ناعمة الشعر أمامه مباشرة.

لا يصدق عينيه، ينحني لها قليلًا، فيصير وجهه في مستوي وجهها، تنزلق الكلمة من فوق شفته السفلى:

- سلمى.

ابتسمت سلمى في وجهه ابتسامتها الجميلة، قال لها خائف:

- كنت عايز أشوفك، شفتك مع "دارتي" كتير.

وجدها جالسة في نفس المكان الذي توجد به "دارتي" في رحلاتهما النومية.

نظر لها خائف بابتسامة حانية، أنزل عينه فلمح قدمها التي كثيرًا ما داعبها فاتسعت ابتسامته، أنزلت هي أيضًا عينيها لتجده يلبس ذلك "الكوتشي" الجديد الذي لم يتعد عمره أربعة أيام، بضحكة بلهاء قالت:

- حلو أوي الكوتشي ده.

ضحك هو الآخر وقال:

- رحت خدته من المحل بالليل من أربع ايام.

كانت تنظر بإعجاب لل"كوتشي" الأبيض المشتبك به لون أزرق بأشكال جميلة، رفعت عينيها إلى الأعلى حتى صارت تنظر نفس نظرة الاعجاب إلى أنف خائف الكبير، وعينه الساذجة.

انحني خائف إلى الاسفل، يفك لاصق "كوتشيه"، قال:

- خدي البسيه.

- لا مش هينفع، انت رجلك كبيرة أوي.

خلع خائف حذاءه ثم انحني يخلع لسلمى حذاءها "الفوشية" القديم، لامس قدمها فشعر بقربه منها، ألبسها حذاءه المسروق في لحظة ولبس حذاءها، للغرابة لم تكن "رجله كبيرة أوي" كما قالت سلمى.

وقف ناظرًا إلى قدمه، انفجرت سلمى في الضحك، أما هو؛ فكان يضحك معها ويهتز دون أن يفهم شيئًا.

"الكوتشي الفوشية" لسلمى في قدم خائف، يدفعها إلى الضحك دون توقف.

في تلك اللحظة لا يفكر خائف في أبيه أو أمه، لا يفكر في "يافيت" أو حتى "دارتي"، نسى كل شيء، مقترنًا بسلمى فقط، لا تنضب "الحكاوي" على شفاههما.

بعدها بيوم، نظر خائف أمامه، ليجد نفس المدرس الذي حدثه في الفصل بشعره الناعم، وبشرته البيضاء.

تقول سلمى بصوت صارخ سعيد:

- ده خايف اللي قلتلك عليه يا أستاذ آدم.

ينظر -خائف وأستاذ آدم- كلاهما إلى بعضهما، يسأل آدم "خائفً" :

- يعني انت مش من المحلة هنا؟!!

- لاء، أنا من هنا.

تتدخل سلمى بنبرة بريئة:

- لا يا خايف، انت مش من المحلة، انت من مصر.

نظر لها خائف بغضب، تعجب الأستاذ "آدم" من ذلك الطفل! ما الذي أتي به إلي المحلة؟!، هل أتي، فقط، ليرى سلمى؟ نظر لخائف ثم قال بريبة:

- مين بقى "دارتي" اللي قلت لسلمى انك شفتها معاها ؟

أمس، كان الأستاذ "آدم" يقف بجوار سلمى حين حديثها مع خائف دون أن يلمحه الأخير، ردت سلمى بسرعة:

- أصل خايف شاف مَدْرَستنا قبل كده، وشاف "زئردة" البقرة صاحبتي.

يشير لها خائف أن تَكُف.. لكنها، تحكي كل ما حكاه خائف لها بحماسة وبراءة.. فالأستاذ "آدم" بالنسبة لها ليس كغيره، هو من نفس قريتها، والغريب أنه يكاد يكون الوحيد فى أن يراها "معندهاش ملبوسة"، قال لها منذ أشهر بمجرد أن ساءت حالتها الصحية:

- هتبقي كويسة يا سلمى، وترجعي تمشي وتلعبي، بس أهم حاجة ترجعي تاني مبسوطة وتضحكي.

والحقيقة أنه لم يدخر جهدًا في محاولة التقرب منها و إضحاكها بعد شللها، حتى إنه كثيرًا ما يزورها في منزلها بالقرية برغم خوف غالب أهل القرية منها كونها "ملبوسة".

من سنوات، كان يعلق على حائط غرفة نومه شهادة مكتوب عليها:

"وافق مجلس الجامعة بجلسته المنعقدة في ٢٠٠٨/٦/٣٠ على منح السيد الطالب/ آدم عبد النعيم محمد حافظ درجة الماجيستير في علوم الحيوان بتقدير امتياز"

لكنه منذ خمس سنوات صحا فجأة من نومه، ارتقى فوق مسند الكرسي بغرابة، مد يده ليلتقط شهادة الماجيستير على الحائط،

كسر البرواز الخشبي ثم مزق الشهادة لقطعٍ صغيرة، نام مرة أخرى وعلى وجهه ابتسامة غريبة.

ثاني يوم ذهب إلى مدرسة "رحمات منزلة"، وقف وسط مكتب "صلاح باشا موسى"، كانت قطرات العرق تنزلق على وجهه في فصل الشتاء، قال بهدوء:

- أنا موافق أشتغل في المدرسة يا صلاح باشا.

- "برافو" يا آدم، مدرستنا يشرفها تشغل عندها حد ممتاز زيك، معاه ماجيستير وعنده علم.

قالها "صلاح موسى" ثم ضحك بشكل غريب مناولًا آدم سيجارة مستوردة من "اللي آدم عمره ما حلم بيها"، الحقيقة أيضًا أن آدم لم يحلم بشيء مما أغدق صلاح موسى عليه ، فقد عينه براتب أعلى كثيرًا، كثيرا جدًا من "رواتب" جميع المدرسين الكبار والصغار.

أيضا قَرَّبه "صلاح موسى" منه جدًا، فبمجرد أن يدخل صلاح باشا موسى المدرسة، يضع حقيبته على الأرض، يشير لآدم من بعيد فيأتي آدم مسرعًا، يتحدث "صلاح موسى" إلى من حوله دقائق، يتجه بعدها لمكتبه فيجد حقيبته تنتظره في يد الأستاذ "آدم"، لكم يشعر آدم بالسعادة والغضب والقهر!.

أحب خائف الأستاذ "آدم" كثيرًا، ربما بسبب عينه التي يشعر أنه يعرفها من قبل، أو بسبب حب الأستاذ "آدم" الشديد لسلمى الذي يظهر في عينيه.

حكى خائف لآدم كل ما حدث معه منذ أن رأى "دارتي"، قال الأستاذ "آدم" بغضب وحسم:

- ارجع يابني مصر، وإياك تقرب من المحلة مرة تانية.

أحس خائف وقتها بغضب عجيب ناحية آدم.

***

ذلك هو اليوم الخامس من أكتوبر، في مدرسة صارت بلا "علام العبد"، من بعيد يلمح خائف رجلًا يعرفه جيدًا، تشتم أنفه رائحة الدماء النحاسية بقوة، يأخذ أنفاسه بسرعة رهيبة.

يترك سلمى الجالسة بجانبه ويركض ناحية رجل ذي بِدلة سوداء فاخرة، ويرتدي ساعة ضخمة ذات فصوص ألماسية، يركز في ملامحه... بشرته بيضاء لامعة، له لحية قصيرة مهندمة ناعمة، يضحك الرجل بين حواريين يحفانه بتقديس، يعود "خائف" إلى سلمى ركضًا، يحرك كرسيها ليشير نحو الرجل. يسألها:

- مين ده؟

عينا خائف يرتعشان بجنون وشفتاه لا يمتلكان الكلمات.

لا تتبين سلمى الرجل جيدًا، فيطيح خائف بكرسيها للأمام وهو يجري وراءه بسرعة شديدة، تغمض سلمى عينيها خوفًا من السقوط، فجأة يوقف خائف الكرسي، بينهما وبين الرجل وسط حاشيته ما يقارب سبعة أمتار.

يجلس على ركبتيه بجانبها ثم يشير إليه وهو يعيد السؤال:

- مين الراجل ده؟!

نظرت سلمى للرجل، قالت بهدوء:

- أستاذ صلاح.

نظر لها خائف نظرة مستفهمة فأتمت جملتها:

- أستاذ صلاح موسى المدير.

يعرفه خائف جيدًا، هو رجل من الرجال الذين كانوا يرتدون الأسود، ويقفون بجانب البوابة الطلسمية في رؤاه مع "دارتي". يمسكون بشيء بينهم ويلتفون حوله، انقبض قلب خائف فجأة، ليس من الرائحة الرهيبة التي لا يستطيع يتحملها، لكن مما تذكره عن سلمى صديقته... يتخيلها الآن كما رآها مع "دارتي"... عريانة تمامًا، يتصبب جسدها كله دماءً ويسيل، أمسك خائف بكرسيها، يهرب بها بعيدًا عن صلاح موسى، كأنه يفر بها من الجحيم، قالت سلمى فجأة:

- أنا بحبه أوي.

توقف خائف، نظر في عينيها "العسلية" التي تلمع بأشعة الشمس، سألها مباشرة:

- بتحبي مين يا سلمى؟.

- بحب أستاذ صلاح باشا موسى.

قالتها سلمى ببراءة، لتجعل من صلاح موسى أول رجل منذ بدء الخليقة يجمع بين البشوية، والأستاذية في لحظة واحدة.

على مسافة غير كبيرة من "الأستاذ صلاح باشا موسى"، يجلس الأسطى "كامل"، والدكتور "عزمي حافظ"، كلاهما، من غير "باشا".. في منطقة "سوق اللبن" يسعيان بلا وجهة ولا هدف...

أثناء تأملهما في الوجوه والحوائط والأرصفة وكل ما هو تافه...

يرن هاتفَ كامل النقَّال. يُطَمْئِن كامل زوجته "بهية" كعادته، بأن كل شيء مازال كما هو:

"زي الزفت".

تماسكت بهية بصعوبة عن شتمه أو الإطاحة بالهاتف اللعين. سألته بهدوء:

- يعني لسه خايف مش ظاهر له أثر يا كامل؟

فتح كامل فاهه ليرد عليها، لكنَّه قبل أن ينطق، لمح رجالًا متجهين إلى المعبد.

ينتفض على بقايا رجل يعرفه جيدًا، يرتدي "بذلة" مهيبة كزي ملِك بين رجال كثر.

من تحت تجاعيد الزمان، يحاول كامل استخراج الملامح الأصلية للرجل، بلا وعي يخرج طرف لسانه ناظرًا بذهول إليه كأنما يتذوق ملامحه.

خمسة وثلاثون عامًا مضت لكن هذه الملامح لها طعم موسى حكيم، التجاعيد قد ضافت عليها طعمًا أكثر أجاجة، على خده الأيمن يلمح الندبات السوداء.

يمضغ كامل ملامحه على مهلٍ، يتذوق طعم المرارة في فمه، ينحني للأسفل، ويبصق بشكل متواصل لعل المرارة تضعف، تَذَكر ابنه... "خائفً"، يجب أن يجده، يجب ألا يعبث أحد بابنه كما عبثوا به من قبل.

بهية مازالت على الهاتف تسمع بصقاته، تناديه:

- كامل.. أنت فين؟!... يا كامل!!

بصوت مبحوح يقول لها:

- اقفلي دلوقت...

أغلق الخط في وجهها، يصيب بهية الجنون، تصرخ فيه بعد أن أغلق الخط، تصرخ في الحوائط، في كل شيء، يَحْمَر وجهها فيصير حَبَّة من "الطماطم" العملاقة:

- يا ولاد القـ...ب كلكم.

***

(٢٨)

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةُ ٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ١٦١ ﴾

[البقرة: ١٦١]

بشكل عجيب غير مفهوم، يكون الانتظار أكثر ألمًا من الإتيان بالفعل نفسه، فالألم الذي تشعر به بهية أضعاف ما يشعر به كامل، تجلس مع إحدى الجارات في شارع قريب، لا تنطق حرفًا، عقلها تائه تمامًا، فجأة يأتي صوت صارخًا من الأسفل:

- "يافتة" رجعت يا عزيزة، "يافتة" رجعت يا بهية...

اصطدمت الكلمات ببهية لترجها رجًا... تَرَجْرَج جَسَدها وهي تركض ناحية دَرَج البيت؛ قالت "عزيزة" صديقتها وهي تلتقط وشاحًا لتضعه على رأسها:

- استني يا بهية ماتروحيش لوحدك.

لم تكن بهية لتذهب وحدها على كل حال، فالكثير من "ستات الحتة" عرفوا برجوع "يافتة"، وذاهبات لاسترجاع "خائف".

في ذلك اليوم الحار، نزلت بهية مع عزيزة يهرولان ناحية بيت "يافتة"، يريان إحدي النسوة في الشارع أو الشباك، فتقول عزيزة لها بعصبية وأمل:

- رايحين يختي لـ "يافتة" عشان نعرف مكان الواد خايف ونجيبه...

لم يمر رُبع ساعة حتى كانت بهية وحولها الكثير من النسوة والأطفال والقليل من الرجال... أمام بيت "يافيت" المدفون تحت الأرض.

"خبطت" بهية الباب الخشبي الخشن بقسوة وعصبية، قالت لها إحدى النساء بثقة:

- هي جوه يختي، لسه شايفاها داخلة من شوية.

بعد مدة وببطء شديد يُفتح الباب، يحْتَك بالأرض ليصنع صوت صرير مرعب، من خلف الباب تظهر امرأة قصيرة منحنية، أماتت التجاعيد الخبيثة ملامح وجهها، فلم يتبقَ بها من الشباب إلا لمعة عينيها، رائحة البيت غريبة خانقة.

تمسك بهية بـ"يافتة" من رسغها النحيف، تدخلها إلى البيت بعنف فتكاد تسقطها، تدفعها فتجلسها على المقعد الأحمر القديم، ذلك المقعد الذي كانت تجلس عليه، ويجلس خائف أمامها على الأرض.

المكان مظلم بشكل كبير، لكن تظهر لوحة على الحائط الرمادي بخط عربي غريب مكتوب فيها:

"قولوا لخائفي القلوب: تشددوا لا تخافوا، هو ذا إلهكم، الانتقام يأتي جزاء الله، هو يأتي ويخلصكم"... سفر أشعياء.

وأسفلها مكتوب:

"وكل ما تتمناه مني أفعله لك"... سفر صموئيل الثاني.

تصرخ بهية في وجه "يافتة" النحيف:

- انطقي يا وليه، وديتي خايف فين؟.

تتعرق يافتة بشدة، جميع من في الصالة الضيقة يتعرق بفعل الحرارة وكثرة الحاضرين، تنظر "يافتة" إلى بهية متسائلة فتعيد عليها بهية السؤال وتزيد عليه:

- كنتي فين يا ولية بقالك أيام؟

تتلجلج "يافتة" في الإجابة، تمسح بظاهر يدها بضع نقاط من العرق، تقول:

- كنت... كن..ت.. عند.. اه.. اهلي

ردت إحدي النسوة:

- أهل مين يا كافرة؟ انتي ليكي أهل؟

كانت هذه الجملة هي نقطة البدء لكل النساء والرجال بالانطلاق في محاولة "تقرير" يافتة ومعرفة مكان خائف.

"ماتقولي يا كافرة"

"اخلصي بدل مانخش فيكي السجن"

"قولي يا حاجة واستهدي بالله"

قالت "يافتة" بصوت صارخ وهي تحاول الوقوف لإخراجهم من البيت:

- انتو عايزين مني ايه؟... اطلعوا برة.

- كده!. طب هنخليكي تتكلمي...

من إحدي النسوة تخرج هذه الكلمات، تختلط الأصوات وتمتزج بصرير الباب الخشبي المرعب، تنظر بهية لـ "يافتة" بضعف. وتقول لها بما يشبه الرجاء:

- "قوليلي ابني فين ...حرام عليكي يا ست".

ترد عليها "يافتة" بلهجة قوية غريبة على جسدها النحيف:

- اطلعي برة يا ست يا مجنونة.

- مش هتيجي غير بالضرب يا فاجرة.

سمعت بهية تلك الجملة من ورائها، فمالت نحو "يافتة"، انحنت "يافتة" من ثقلها فسقطت على سجادتها الحمراء الخشنة من أثر دفعات النساء.

هنا تخلى العقل عن ذلك البيت تمامًا، كل العقول في تلك البقعة الضيقة قد هجرت المكان، ولم يتبقَ إلا قلوب ملتاعة وغريزة أمومة تحترق...

تتسابق الأيادي في ضرب يافتة في جميع أنحاء جسدها الصغير. كأن الالسن قد اختزلت جميعها في لسان واحد، صار الجميع رجالًا ونساءً يردد هذه الجملة:

- انطقي يا بت الكلب.

تتمزق "جلابيتها" تمامًا لتظهر تحتها لحمًا مجعدًا متشققًا، ثديين متهدلين فارغين، لمَ تنطق يافتة بل استمرت في الصمت، واستمرت الأيادي والأرجل فى الصَفْع والرَكْل، حتى صارت الأيادي تمتزج بلون أحمر... "لون الدماء".

مرت الدقائق الطويلة قصيرة جدًا على الجميع، بعدها وفي لحظة واحدة عادت العقول من الخارج، يعرف كل عقل أين رأس صاحبته وصاحبه، فيسكنه بسرعة البرق.

ينظر الجميع إلى بعضهم بعضًا بقلق، ألسنتهم مرتجفة، تردد بهية وهي تبكي:

- وديتي خايف فين؟

ابني راح فين يا ولية؟

ووراءها يردد الجميع مثلها ويضربون أكفهم ببعضها تحسرًا على ذلك الطفل الذي ضاع: "ربنا ينتقم منك يا يافتة" "منك لله" "الواد راح خلاص" "شدي حيلك يا بهية ياختي" "مفيش منقذ غير ربنا".

يرجع الجميع خطوات إلى الوراء، لتبقي دائرة في الوسط فارغة تمامًا إلا من "يافتة"، ملقاة هي على ظهرها، مفرود جسدها، مفتوح فمها، تتبقي بعض خرق "جلابيتها" تحتها، وجسدها عارٍ تمامًا مغطى بالدماء، وجهها صارت ملامحه غريبة، وشعرها الأبيض يتناثر على وجهها ملتصقًا ببقع الدماء.

***

(٢٩)

﴿ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ وَهُوَ كُرۡهٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٢١٦ ﴾

[البقرة: ٢١٦]

نظر "كامل" بعين زائغة إلى "موسى حكيم" داخل معبد "خوخة اليهود"، أدار وجهه إلى الدكتور"عزمي حافظ" الذي كان ينظر أيضًا إلى موسى حكيم بمزيج من الكره والرهبة.

سأله كامل:

- انت تعرف موسى باشا حكيم يا دكتور، عزمي ؟

رد عزمي بصوت واهن:

- موسى حكيم من نفس قريتي... قرية "ميت البقر"، (يضحك بسخرية) اسمها اتغير لقرية أولاد الحكيم للأسف.

عيلتهم وعيلتنا، عيلة الحكيم وعيلة حافظ أكبر عيلتين في البلد، عيلة حافظ عيلة العلم الكتير، والحظ القليل، وعيلة الحكيم العكس (ضحك بقوة).

سأله كامل بقلق:

- تِعرف حد من ولاده، صلاح وصالح؟

- أعرفهم طبعا بكوني من نفس القرية، بس أنا مش حزب الحكيم (ضحك بسخرية)، يعني مجرد كلام من بعيد.

بمجرد أن شاهدا موسى باشا حكيم، ومعه الرجل ذو اللحية الطويلة المدببة والنجمة السداسية، شعرا أن هناك خيطًا ما يقربهما من خائف.

بين رجاله لا يراهما موسى حكيم، هو بالطبع لا يستطيع تَعَرُّف كامل بعد كل ذلك العمر... خمسة وثلاثين عامًا... عُمْر كبير تنقلب

فيه الملامح و"تتكرمش" ليونة الجلد، لكنها غير قادرة على التخلص من تلك النقاط السوداء على خد موسى حكيم الأيمن.

والحقيقة أن موسى باشا حكيم لم يرد التخلص من ندبات وجهه السوداء، تلك الندبات التي أحبها حقيقة، ورضي بها بشكل كامل.

قالت له زوجته "هانم" شبيهة سعاد حسني بدلال، أثناء ممارستهما الجنس:

- هو ممكن تعمل عملية يا "مومي" تشيل بها العلامات في وشك؟!

من داخلها، كرهت "هانم" العلامات السوداء في وجه "مومي". أولًا وأخيرًا، تلك العلامات هي ما أجبرتها على أن تغير شكل "الكوشة" التي حلمت بها طوال حياتها، لن تنسى "هانم" يوم زواجها، ذلك اليوم الكريه الذي زادها كرهًا لموسى حكيم ما حَيَت.

رفْض قاطع من طرف موسى حكيم أن يتخلص من علامات وجهه، يتساءل هو نفسه متعجبًا، ما الذي يمنعه؟

يعرف جيدًا أن "هانم" تكره وجهه، والحقيقة أن هو أيضًا يكرهه، كَرِهه منذ أن كان طفلًا صغيرًا في سن "خائف"، يسخر منه أولاد قريته الصغار، ويقذفونه ببقع الطين على خده الآخر "الأيسر"... حتى يصير رأسه الأصلع في ذلك الوقت كبيضة كبيرة محاطة ببقع طينية، وندبات سوداء من جميع نواحيها.

يتضاحك الأطفال عليه، يحوطونه ويبدأون في تنظيف البقع ثم رسمها مرة أخرى بطريقة أجمل، يبتسمون فخرًا بلوحتهم السريالية الجميلة التي هي رأس "موسى باشا حكيم الصغير".

الآن، موسى حكيم هو سيد القرية، قرية "ميت البقر" التي قدم أهلها منذ بضع سنوات طلبًا مختوما من غالبيتهم لتغيير اسمها إلى قرية "أولاد الحكيم"؛ فبعد تتبع الخط العائلي، ونَسْل ساكني القرية تبين أنهم يتبعون جَدًا أكبرَ عُرف وقتها بلقب "الحكيم"، وافقت المحافظة، فورًا على الطلب .

في معبد "خوخة اليهود"، يداعب موسى حكيم ندباته الجميلة بعشق كأنه يمارس الحب معها؛ يقول لرجل بجانبه:

- هنبتدي شغل امتى يا ياسر بيه؟

حَنى"ياسر بيه" رقبته للباشا فورًا:

- حالاً يا سعادة الباشا لو تحب.

يشعر كامل وعزمي بأنهما يقتربان من شيء ما، لا يعرفان ماهيته، لكنه اقتراب على كل حال، كأنهما يقتربان من ضوء بنهاية طريق مظلم، لا يعرفان أهو ضوء النجاة أم ربما نيران جهنمية، ليس أمامهما إلا تتبع موسى حكيم إلى نهاية الطريق.

لكن كيف يمكن تتبع رَجُل كهذا... رجل محاط بحواريين، وسيارات وقداسة نبي؟.

***

على بعد كيلومترات قليلة من قرية ميت البقر "أولاد الحكيم"، أمام البوابة الطلسمية، يقف خائف بجانب سلمى الجالسة على كرسيها.

يمسك خائف الكرسي المتحرك الخاص بسلمى متجهًا إلى البقعة التي يقف فيها "صلاح موسى حكيم" وسط موظفيه.

وقف خائف أمام "صلاح موسى حكيم" يفصله عنه مالا يزيد على خمسة أمتار، اشتم رائحة الدم تزكم أنفه الكبير.

- هي سلمى عبد الحي راحت فين؟!

قالها خائف بصوت عالٍ صارخ لا يتجانس مع سنواته التسع، الحوش مزدحم وتتعالى صيحات الأطفال، يتحدث صلاح موسى بوجه باسم إلى موظفيه.

نظر ناحية الصوت فوجد الطفل الأسمر واقفًا في الأمام، خلفه الطفلة قعيدة الكرسي ذي العجلات، ووراءهم بخطوات الأستاذ "آدم"، نظر صلاح موسى حكيم ناحية خائف بسخرية، ثم أدار رأسه ناحية آدم هازًا رأسه بهدوء له معنى.

يرتعش آدم في مكانه، يهتز رأسه على الجانبين، ويداه أمامه مضمومة على صدره، أعادها خائف:

- وديت سلمى عبد الحي فين؟

اعتصر خائف عقله لتذكر الاسم الذي سمّته به سلمى صديقته، تَذَكّر، نعم هو .. "الأستاذ صلاح باشا موسى"، فاكمل بصوت صارخ:

- وديتوا صاحبة سلمى و"دارتي" فين يا صلاح؟

نعم، قالها هكذا... "صلاح"، صلاح حاف، أخفض الأستاذ "آدم" رأسه و"خبط" على جبهته بيمناه، أدرك المستقبل.. هناك نوع من المستقبل لا يستأثر به الإله وحده، بل يستطيع البشر إدراكه أيضًا، أدرك "آدم" ذلك النوع من المستقبل فهدأ، هدأت ارتعاشة وجهه ويده، وظل موجهًا رأسه إلى المشهد باستخفاف كأنه يتابع مشهدًا من الخارج.

تلك "الصلاح الحاف"... بلا أي أستاذ أو باشا أو أي "غمُوس"؛ جعلت جميع من حول "صلاح" يستنفرون، ويستعدون للانقضاض على الطفل الأسمر النحيف ذي العين القوية.

أشار لهم صلاح موسى بسبابة يمناه للأعلى ليمنعهم عن خائف فتوقفوا جميعًا.

في ذلك الوقت ارتعشت شفتا خائف، صار يتمايل للأمام والخلف دون أن تهب قطرة هواء واحدة، تلتهب وجوه الجميع، وتتسابق عليها قطرات العرق إلا خائف؛ فوجهه ناشف تمامًا بل يشعر ببرودة وألم في قلبه، تكاد تقتله رائحة الدماء. يسقط، لكنه يستند على ركبتيه، يفتح فمه إلى آخره، يسحب الهواء بصعوبة وأصوات أنفاسه تصل للجميع، يندهشون... على وجه صلاح موسى حكيم ابتسامة هادئة قلقة... يقول:

- مالك يا حبيبي؟، فيك ايه؟، حد يشوف دكتور حالًا؟

يتحامل خائف ليقف على قدميه مرة أخرى، تزداد الرائحة... يشعر بقوة رهيبة مثل رؤاه مع "دارتي" تمامًا، ينظر بإصرار إلى

صلاح موسى، لكنَّ عينيه تلتقط بشكل عجيب كل ما في الحوش، كل ما هو أمامه وكل ما خلفه، تركض وتتطاير الأطفال من حوله، هم نفس الأطفال العُرَاة في رؤاه مع "دارتي".

بنظرة أقوي مما سبقتها، صرخ خائف بصوت عالٍ حتى خُيل لصلاح موسى أن سمعه كل من فى أرض الحوش بل كل من فى أرض الله...

- سلمى عبد الحي عملتوا ايه فيها؟ انتو موتوها؟!

ذلك الوجه الأبيض لصلاح موسى تحول أحمرَ بلون دماء سلمى عبد الحي، أنزل يده اليمنى جانبهأ، اعتصر قبضة يده حتى كادت تختفي في بعضها، نظر للرجال حوله بحسم، في تلك اللحظة ينقض رجل عريض من الخلف على خائف يلكمه، لكن خائف يتحرك جانبًا "ليخبط" الرجل قبضته في ذرات هواء تسخر منه.

صار خائف يصرخ بكلمات عشوائية لا يتفهمها صلاح موسى... لا تلتقط أذنه إلا كلمة سلمى ومقاطع مفترقة من كلمات كثيرة... "صاح"..."تي" .."موت".

صلاح موسى في مكانه ثابت تمامًا، عيناه صارتا أكثر تصميمًا من عين خائف، يشاهد رجلًا ينقض هو الآخر على خائف من الأمام فيمسك بكتفيه، ويدفعه للخلف بأقصي قوة، يتقهقر خائف ثلاث خطوات، لكنه لا يسقط، يدفع خائف رجلًا آخر فيسقطه أرضًا، يُدْهَش الرجل، يفرك عينيه لربما لا يرى جيدًا، كيف لطفل صغير نحيل أن يسقطه أرضًا؟!.

تحول الصراع إلى مشهد ساخر أشبه بمصارعة الأقزام الهزلية.

ثلاثة رجال ذوو كروش يحاولون إسقاط خائف أو الإمساك به، لكنه يتفادى منهم بخفة قرد، وتتلعثم قبضاتهم عندما تحتك بيده المدافعة عنه.

يا لتلك الكروش! كم هي ثقيلة على الإنسان!.

صارت ألسِنة الرجال تلهث خارج أفواههم، ناظرين إلى "صلاح موسى" بخجل، أما خائف؛ فقد اقترب خطوة من صلاح موسى، تكاد أسنانه تتحطم من ضغطه عليها...

شعر صلاح موسى بأن خائف سيقتله حتمًا، هنا في نفس البقعة التي سقطت فيها سلمى عبد الحي...

هل يسقط مثلها في نفس البقعة تمامًا؟

سَرَت رعدة في قلب صلاح باشا موسى، وبرودة غريبة جمدت كل حبات العرق الزاحفة على وجهة كالثعابين، وقف جامدًا تمامًا مستسلمًا، يتقدم خائف ناحيته بهدوء وثبات شديد، صار لا يفصله عن صلاح موسى إلا سنتيمترات قليلة، يشعر بجسده قويًا ومتماسكًا، وعينيه كعين الإله تلتقط كل حركة حوله.

يرفع "خائف" يده ليهوى بها على جسد صلاح موسى، والأخير مستسلم تمامًا. فجأة، يضيق نظر خائف فلا يكاد يري شبرًا أمام عينيه، يشعر بألم رهيب في رأسه، يتهاوي على الأرض أمام صلاح موسى معفرًا بسحابة ترابية، تمامًا في نفس البقعة التي سقطت بها سلمى عبد الحي، على رأسه من الأمام يسيل خيطٌ عريض من الدماء.

خلفه يقف رجل عريض، مكورًا قبضته التي تحتوي على قطعة من الحديد، نفس القبضة التي ضربت "خائفً" على رأسه منذ لحظة، يغلق يده جيدًا ليخفي قطعة الحديد؛ فلا يظهر منها إلا لمعان بسيط، لمعان لاحظه الأستاذ "آدم" جيدًا...

يصرخ صلاح موسى سريعًا فيمن حوله:

- عالمستشفى بسرعة، انقلوه مستشفي الدكتور "صالح" بسرعة...

يقصد أخاه "صالح موسى حكيم" الذي يدير مستشفيين في المحلة والقاهرة، ثم انحني على أُذُن واحد ممن حوله ليرمي إليه بعض الكلمات... الحقيقة أن صلاح موسى لن ينقل خائف إلى المستشفى، بل إلى مكان آخر.

في هذا الوقت، المكان أمام بيت "يافيت" صار مهجورًا تمامًا. بمجرد أن رأي الجميع مشهد الدماء المتناثرة على جسدها ووجهها، انحنت إحدي السيدات على صدر المرأة العجوز ثم نظرت برعب إلى الواقفات حولها، وقامت قاصدة باب الخروج، هرولن جميعهن خلفها تاركات الباب "موارِباً".

أما بهية؛ فتحولت صنمًا، لا تبكي، لا تبتسم، ليس للمشاعر وجود في وجهها.

- "يا يافتة يابت الكفار... ضيعتيني حية، وضيعتيني ميتة"

***

فتح المحضر في ٨ أكتوبر ٢٠١٩ الساعة الواحدة ظهرًا بمعرفتنا نحن - وكيل نيابة قسم إمبابة وحضور سكرتير النيابة-، هذا، وقد ورد إلينا خطاب التحريات الصادر من المباحث، وبالاطلاع عليه ورد فيه أن المجني عليها، وعمرها واحد وثمانون عامًا، كانت ترتدي جلبابًا أسود، نحيلة القوام، وتدعى **"يافيت ابراهام بنجامين"**، وأنها قد وجدت مقتولة في منزلها بإمبابة.

وأشرنا بضمه في الأوراق وأغلق المحضر.

هذا، وقد أسفرت التحقيقات والتحريات عن عدم معرفة شخص الجاني، فقد قررنا نحن -وكيل نيابة قسم إمبابة- حفظ المحضر بحالته، لحين ظهور أدلة جديدة وأقفل المحضر...

***

(٣٠)

﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ٣٧ ﴾

[البقرة: ٣٧]

هناك في المحلة على أعتاب البوابة الطلسمية لمدرسة "رحمات منزلة"، خائف محمول على يدي أحد رجال "صلاح موسى"، تتدلى رجلاه ورأسه للأسفل كأنما قد فلتت من الجسد، تتساقط نقاط الدماء من رأسه على الارض، يقف الأستاذ "آدم" حانيًا رأسه بخوف.

خلفه يقف "صلاح باشا موسى"، تُخَبِط الدموع على جدار عينه، عله يفتح لها طريقًا للخروج فيمنعها، هذه الدموع المحبوسة التي لاحظها من حوله لم تحيرهم هم فقط، بل حيرته هو شخصيًا.

بسرعة شديدة وضعوا "خائف" في سيارة تتبع موكب "صلاح باشا موسى". لم تكد السيارة تنطلق حتى وقف رجلان أمامها يلهثان ويصرخان.

منذ قليل، عندما رأى عزمي "موسى حكيم" في معبد "خوخة اليهود"، اتصل عزمي بأحد سائقي موكب موسى حكيم الذي يعرفه جيدًا من القرية، عرف منه أن موكب "موسى حكيم" سيتجه إلى مدرسة رحمات منزلة، فاتجه بأقصى سرعة مع كامل إلى المدرسة ليجدا "خائفً" محمولًا إلى أحد السيارات.

أنزل كامل "خائف" من السيارة الفارهة، انحنى فوقة، صار وجه خائف غائبةً عنه الروح تمامًا، وصدره صامت بلا نبض، على رأسه قماشة معجونة بالدماء، والدماء مازالت تتساقط منها، قال عزمي بسرعة:

- بسرعة ناخده على مستشفي، يا كامل.

التقط كامل ابنه مرة أخري لينطلق به من جديد، أقنعهما الرجل الذي كان يحمل "خائف" بأن يركبا إحدى سيارات "صلاح موسى" مرة أخرى، فوافقا بلا وعي. في مستشفي "صالح باشا موسى" نزلوا جميعًا، وخلال عشر دقائق رقد خائف في غرفة له وحده بعد أن قام بـ "الإشاعات" المطلوبة...

يرن هاتف كامل بعد دقائق، يأتيه صوت رخيم واثق:

- حضرتك والد الطفل اللي اتجرح في المدرسة، أنا "صلاح باشا موسى"، أحب أطمن حضرتك إن العلاج في المستشفى هيبقي مجاني، وإن المسئول عن اللي حصل هيتعاقب بالتأكيد.

مثل أبيه، يؤمن "صلاح موسى حكيم" بأن المسئول "هيتعاقب بالتاكيد"، انقبضت يد كامل، وسقط الهاتف منها، يرتعش جسده بقوة، شعر بآلام عنيفة في كل خلية في جسده، ذلك الصوت لم يتغير، كل كلمه قالها صلاح موسى لم تكن تدخل أُذُن كامل، بل كانت تسلخها طبقة بعد الأخري حتى تسدد رأسها الرمحي في قلبه، التقط كامل الهاتف مرة اخري وقال بنبرة قوية:

- المسئول هيتعاقب بالتأكيد، يا صلاح باشا.

أغلق الهاتف دون كلمة أخرى، يفكر كثيرًا في نقل خائف لمستشفى آخر، كيف يأمن في مستشفي عرف أن مديرها وصاحبها "صالح موسى حكيم"... قاتله هو وأبوه؟!، ترى ما الذي حدث لخائف؟!، فكر كامل...

- غيبوبة كاملة، نزيف وارتجاج في المخ... الحالة صعبة،

ومش واضحة.

هذا ما ترجمه له عزمي حافظ بعدما رَطَن الطبيب أمامهما بكلام غير واضح، أحس كامل بسقف الغرفة يسقط ليطبق على جسده.

خرج كامل وعزمي حافظ من المستشفى تاركين "خائف" أسير غرفة العناية المركزة، وأسير الدكتور "صالح باشا موسى".

منذ دقائق قال لهما أحد الأطباء بجدية تعمدت أن تكون أكثر جدية:

- للأسف، الأشعة والحالة اللي وصل بيها الطفل للمستشفى بتقول إن الخبطة شديدة أوي وأثرت على المخ، ونتج عنها نزيف شديد ومحتاج يدخل غرفة عمليات بأقصى سرعة...

ومكدبش عليك محدش يقدر يعرف هيفوق امتى أو ايه المضاعفات اللي ممكن تحصل حتّى بعد العملية، احنا هنعمل قد مانقدر لإنقاذ حياته...

فبعد إذنك ده إقرار مكتوب فيه اللي شرحته ليك وكل المضاعفات، محتاج تمضيلي عليه لو هنعمل العملية.

هذا ما طُلب من كامل، أن يتعهد بأن يقبل بكل المضاعفات التي تحدث لابنه... حتى موته.

هل يموت ابنه صغيرا كما مات هو صغيرا من قبل؟ هكذا فكر "كامل".

بكلمات خفيفة جدا لا تكاد تمس شفتيه يهمس:

- "المسئول هيتحاسب بالتأكيد".

يعرف أن هذا مبدأ "موسى باشا حكيم" -عضو مجلس النواب، يعرفه هو وأي إنسان تابع الجلسات البرلمانية المذاعة "تليفزيونيًا"، عندما يقف موسى حكيم بجسده "المنحني الآن، المستقيم زمان" ، ليجلجل بلسانه، ويهز يده وصوته الصادق، يقول:

- كل اللي أخطأ لازم يتعاقب، ده مبدأنا في البلد دي، وده مبدأي من وأنا عندي عشر سنين وهموت على المبدأ ده.

يصفق له الحاضرون من النواب، بل يكاد يصفق له رئيس المجلس القصير السمين ذو "الصلعة" الكبيرة.

والحقيقة أن موسى لم يكذب، أو حتى يتجمل، فهذا مبدأه منذ أن كان طفلًا، منذ أن كان الأطفال يتلقفون جسده بينهم، و"يخبطون" وجهه بالطين، وقطع الطوب، ويلقبونه بـ"موسى الجربان" برغم أنه كان يستحم خمس مرات يوميًا.

الحقيقة أيضًا أن موسى حكيم قد عاقب كل مخطيء رآه في أرض الله إلا سائق السيارة "قاتل ابنته"، لم يعاقب أيضا أبناء قريته، قرية "ميت البقر"، أو كما صارت تسمي قرية "أولاد الحكيم"، عفا عنهم جميعًا.

عندما يمشي موسى حكيم في قريته يشعر بأمان لا يشعر به وسط مئة من الحرس الخاص، يمشي بينهم كأنهم أولاده، فيجد من يقبل يده بأدب، من يخلع عنه عباءته في يوم حار، من يشعل له سجائره، لم يتخيل نفسه ميْتًا إلا بين أهل قريته، "أولاد الحكيم"، يتخيل أحيانا أنه بعد أن يموت ستُخلق لروحه أجنحة، وستمكث روحه تُحَلّق في هواء القرية تُسَيِّر أمورها، وتدافع عنها إلى الأبد، بل إلى ما بعد الأبد.

يستغفر ربه من هذه الفكرة الشيطانية، ثم يقول لنفسه بخبث خفيف الظل:

- بس مش شيطانية أوي.

مازالت الكلمة ترن في أذن "كامل" حتى يكاد أن يُصم:

"المسئول هيتعاقب بالتأكيد".

جسد كامل النحيف صار كالقلم الرصاص مفرود تمامًا، يتذكر كلمة عزمي حافظ عند معبد "خوخة اليهود" عن موسى حكيم...

- كان عنده بنت صغيره بس ماتت.

يقف "كامل" فجأه أمام باب المستشفى، "كان عنده بنت بس ماتت" نعم ماتت، يتذكر الآن مشهد صديقته آمال جيدًا، المشهد بكامله وليس مبتورًا كما احتفظ به عقله، في عقله كان المشهد يتوقف عندما تأتي سيارة مسرعة فتذهب آمال بعيدًا. أما الآن؛ في تلك اللحظة فعقله الشرير قد قذفه بالمشهد كاملًا على شريط "فيديو" قديم، لأول مرة يراه منذ خمسة وثلاثين عامًا.

ينهار "كامل" على الأرض ويرتعش جسده، يغلق عينيه كأنه يمنع عنهما الرؤية ويغلق شريط "الفيديو"، يرتعش في مكانه، فيمسك به عزمي حافظ ورجلٌ آخر ويمددانه على الرصيف...

يُشغل عقل كامل شريط "الفيديو" القديم المكتمل لحادثة آمال، منذ خمس وثلاثين عامًا، بعد ارتطامها بالسيارة، تطايرت "آمال" السمراء أمتارًا حتى هيِيء للطفل كامل أنها لن تنزل الأرض مرة أخرى، شعرها المجعد يبتعد عنها ويرسم لوحات سريالية غير مفهومة، الأتربة على وجهها تُزيد ملامحها رعبًا وألمًا. بعد مدة أحسها عمرًا سقطت فجأة على الأرض، قميصها "الروز" صار معجون بسائل الحياة الأحمر،

يُسَلِّط عقله "الكاميرا" على وجه آمال، يراها جيدًا، الشعر في مقدمة رأسها تم نَحْله تمامًا، وطبقة من الجلد على خدها الأيمن اختفت، تنشع الدماء من مسامات وجهها. لم يكن وجه آمال، بل وجهًا آخر قبيحًا، العين مفتوحة إلى آخرها، عين زجاجية باردة لشخص آخر لا يحبه، لا يكرهه أيضًا، شخص لا يعرفه.

لا يتذكر بعدها إلا جريدة يفرد صاحبها أوراقها واحدة تلو الأخرى بحماسة عجيبة، ثم يتركها ليتهادي كل منها يمينًا ويسارًا على جسد آمال ووجهها... إلى الأبد.

أول مرة منذ خمس وثلاثين عامًا، يَعِي كامل تمامًا أن "آمال" قد ماتت؛ يبكي فجأة، يصرخ بأنات مكتومة، بل أنات عتيقة، يُغلق شريط "الفيديو"...

بكاء كامل صار كبكاء طفل تمامًا، ينتحب ويشهق مثل طفل أخذت منه لعبته، يحتضنه عزمي مثل أمه، ويمسح عنه دموعه.

ذلك المشهد العجيب أمام باب مستشفى الدكتور "صالح موسى" استمر لأكثر من ساعة، وسط "نهنهة" من كامل و"طبطبة" من عزمي حافظ.

لم يكد كامل يقف على قدمه مستندًا إلى ذراع الدكتور"عزمي"، حتى كان يقف أمامهم رجل متوسط الطول، رجل يعرفه الدكتور "عزمي" جيدًا، يسأله الرجل:

- هو خايف حصله حاجة يا عزمي؟!

يرد دكتور عزمي بصوت ضعيف:

- في غيبوبة من ساعتها.

فيقول الرجل بسرعة مفاجئة:

- لازم تنقلوا خايف من المستشفى دي حالا لو عايزينه يعيش.

استفاق كامل فور أن سمع كلمة "خائف" و "يعيش" معًا، ينظر إلى الرجل بعدم فهم، يندفع الرجل بعيدًا عن المستشفى ويقول لهما:

- لازم نبعد شوية.

ابتعدوا قليلًا، وَجَّه الرجل نظَره إلى عيني كامل تمامًا:

- أنا آدم عبد النعيم، عزمي عارفني.

يتعجب كامل من الشاب الذي يقول للدكتور "عزمي حافظ"، "عزمي حاف"... يُكمل آدم:

- أنا شفت كل اللي حصل، لازم تنقلوا الولد من المستشفى دلوقت، وجوده في المستشفى هنا مش مضمون، الباشا هيحاول يخلص منه.

لم يفهم كامل وعزمي من الباشا الذي يقصده آدم، ففتح آدم فمه، وأغلقه، يرسم الاسم بشفتيه دون نطقه، كأن فمه لا يطاوعه:

- "صلاح باشا".

ازداد عزمي حيرة، فقد لمح صلاح موسى على باب المدرسة تكاد عيناه تبكيان على خائف... إذن: كيف يريد أن يتخلص منه؟.

ولكن كامل صدّق آدم تمامًا، هذا ما كان يحدثه به قلبه قبل أن يأتيه على كل حال.

هاديء تمامًا الدكتور "عزمي"، ينظر إلى عين آدم بغيظ رهيب... كأنما يريد أن يقتله، طوال العمر أحب الدكتور "عزمي" آدمَ بشدة وكرهه في نفس الوقت...

***

(٣١)

﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَآ إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحۡمِلۡ عَلَيۡنَآ إِصۡرٗا كَمَا حَمَلۡتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلۡنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعۡفُ عَنَّا وَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَآۚ أَنتَ مَوۡلَىٰنَا فَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢٨٦ ﴾

[البقرة: ٢٨٦]

اتجه كامل بسرعة إلى أحد الأطباء:

- أنا عايز اطلع ابني خايف من المستشفى دلوقت.

ذهل الطبيب فحالة الطفل لا تسمح أبدًا، بعد تهديد كامل الذي صار يصرخ في كل من أمامه، وافق الأطباء مضطرين بعد توقيع كامل ورقة تفيد بمسئوليته عن كل ما يحدث لخائف.

لم يهتم كامل بتلك الورقة، فأول مرة يشعر بأنه مسئول، مسئول عن كل ما حدث لخائف، وعن كل ما حدث لآمال، وله هو نفسه، أول مرة يتبني مبدأ موسى حكيم العظيم:

"المسئول لازم يتعاقب"... وهو الآن "بيتعاقب" ويقبل تمامًا العقاب...

خرج بابنه من المستشفى متجهًا لمستشفى آخر، حكي لهما الأستاذ "آدم" ما حدث في المدرسة مع خائف، حكى لهما عن خائف وكلامه في وجه "صلاح حاف"، عن تصديه لرجال صلاح موسى، والرجل الذي ضرب خائف بقطعة من الحديد من خلفه.

بل حكي لهما عن كل شيء، عن كل ما يُثقل قلبه، عن ذلك اليوم "الابريلي" كثيف الرياح والأتربة منذ ستة أشهر، عن موت سلمى عبد الحي وعلاقتها بسلمى صديقة خائف، وعن الأبقار التي كان "يربّيها" أحيانًا موسى باشا حكيم في حوش المدرسة، ليقوم بذبحها للأهالي. بعد موت سلمى عبد الحي تم التخلص من الأبقار في نفس الساعة.

على سريره في العناية المركزة، يغوص خائف في غيبوبة كاملة،

وعلى بعد عشرة أمتار خارج الغرفة يحكي آدم عبد النعيم، يحكي ويحكي بلا توقف... لم يكن يحكي لكامل وعزمي حافظ... بل يحكي لنفسه، يحكي فيعود يشعر من جديد... يعود ليحيا مجددًا.

لم يعد يهمه شيئا، قال لنفسه:

- اعمل اللي تعمله فيا يا صلاح باشا، انهاردة استرديت روحي بعد سنين، حتى لو هموت بكرة.

بمجرد أن انتهي من حكاياته، ضحك بصوت عالٍ، نهرته الممرضة بجواره، ضحك على روحه التي ستفارقه من جديد إلى الأبد...

ينظر عزمي بخوف شديد إلى كامل، بل ينظر بهلع... في طرقة المستشفى المكيفة، يتعرق عزمي بسيول من العرق، يخرج منديلًا من جيبه، يحاول إيقاف السيول على وجهه، يلامس ندبات رقبته التي صارت واضحة جدًا نتيجة بروز عروقه الشديد، يضغط على رقبته، ويحك الندبات بأظفاره كأنه يريد إزالتها أو ربما زيادتها.

ينظر آدم إلى ندبات رقبة عزمي ثم يبتسم بألم، فهو يعرف حكاية هذه الندبات جيدًا، تستفز هذه الابتسامة الدكتور"عزمي" فيقول لآدم بصرامة:

- يعني انت جاي ليه دلوقتي؟!

يلاحظ كامل (أول مرة) الشبه الكبير بين عزمي وآدم خاصة عينيهما الطويلة الوامضة، يقول الدكتور "عزمي" بصوت مرتعش بسخرية:

- أصل الأستاذ "آدم" بيِسْتَعَر من اسم "آدم حافظ"، فبيعرف نفسه "آدم عبد النعيم".

والحقيقة أن آدم بداخله كان حقًا "بيستعر" من اسم عائلة "حافظ" برغم أن العائلتين (الحكيم وحافظ)... طالما تنافسا على زعامة القرية؛ لكن تلك الزعامة حسمها موسى حكيم في سنوات عمره.

ينصرف نظر عزمي عن وجه آدم كأنه صار لا يعرفه، يشعر بوهن رهيب في رجليه، ينظر لكامل، يقول بقلق:

- النهاردة سبعة يا كامل، سبعة أكتوبر.

ينظر له كامل ببلاهة وتعجب، يرفع الدكتور "عزمي" ذراعه السليمة على كتف كامل، لا تتحمل اليد وزنها فتسقط من الضعف. بشفاة ترتجف ولسان مرتعش يقول:

- بكرة عيد الغفران اليهودي، لازم نحافظ على خايف ونحميه.

يتراجع كامل إلى الوراء، ينظر إلى عزمي حافظ بوجع. يصرخ بأعلى ما عنده أمام باب العناية المركزة:

- فُوق بقي... يهود ايه وعيد زفت ايه؟ انت مسمعتش اللي بيقوله آدم اخوك؟!!

ابني بيضيع وانت بتقوللي يهودي... انت مجنون؟!

بذل عزمي حافظ جهودًا رهيبة للحفاظ على اتزانه، بخطوات ضيقة جدًا وجسد يترنح سَقَط على أقرب كرسي خلفه.

يتعجب آدم منهما، أحدهما: كان "يُنَهنه" أمام المستشفى كطفل يبلغ ثلاث سنوات وهو كامل، وآخيه عزمي: الآن تحمر عينه وتُغلق كرجل يختلط جسده بمخدر "الحشيش".

قام آدم حافظ ليسند أخاه الخائرة قدماه، ثم سأله وعلى وجهه ابتسامة ساخرة:

- مال بقى اليهود بحكاية خايف؟، ما هو ده اللي ناقص.

فأجاب كامل وهو يشير إلى الدكتور "عزمي حافظ" باستهزاء:

- اصل البيه شايف إن اليهود جم من بلدهم مخصوص عشان عايزين ابني.

ضحك آدم حافظ، بل اشتد ضحكه وصار أشبه بالصراخ، ينحني جسده من الضحك ويستقيم ولا يستطيع السيطرة على ضحكاته؛ تأتي له ممرضة تنهره، فيعتذر لها (ضاحكًا أيضًا)، مرت ثوانٍ طويلة حتى استطاع كتم ضحكته بصعوبة.

قام الدكتور "عزمي" من الكرسي ناظرًا بحسم وكُره إلى كامل وآدم، تكاد عينه تلفظ لهبًا، قال بصوت مبحوح موجهًا نظره إلى كامل:

- اليهود مالهمش بلد ياسطى كامل... فلسطين مش بلدهم.. كمان ابنك جيه على معبد "الخوخة" ليه؟، وليه شفنا موسى حكيم في المعبد ومعاه الحاخام اليهودي؟.

قالها ثم نظر إلى أخيه "آدم" المبتسم باستفزاز، أما كامل؛ فينظر بهدوء إلى آدم كأنما يستنجد به، فهز الأخير كتفيه للأعلى ثم

قال:

- يا دكتور عزمي، الموضوع مالوش أي دعوة باليهود، أنت اللي اليهود سيطروا على تفكيرك، وخلو عقلك يخْرَب.

مازال عزمي وكامل ينظران إلى آدم كأنما يطلبان منه تفسيرًا، فاكمل آدم:

- اللي حصل مع خايف شيء حقيقي تمامًا ونقي،

خايف من وهو في القاهرة شاف اللي حصل هنا في المحلة قبلها بست شهور، شاف اللي انا حكتلكم عليه من دقايق وهو على سريره في إمبابة.

فهمت يا دكتور عزمي!؟، ده شيء يمكن غريب بس نقي، ده مايتسماش سحر.

استرد عزمي جزءًا من قوته، فاستطاع الوقوف، قال بسخرية:

- والكائن اللي له عين البقرة اللعينة اللي جاله في المنام كان بردو شيء نقي يا آدم، ولا كان وحي خبيث بيتشبه بوحي محمد؟.

جلس آدم بهدوء، لعله فعل ذلك ليأخذ وقتًا في التفكير، قال لعزمي بجدية:

- هو ماكنش وحي أنبياء يا دكتور، بس الأكيد أنه أقرب لوحي الأنبياء من أنه يبقى وحي خبيث، كان شيء صادق وبيستنجد بخايف.

الغريب أنه بعد أن كانت الممرضات يطلبن من الثلاثة خفض

أصواتهم، فإنه حدث شيء عجيب، تجمعن الممرضات يتابعن ما يحدث بين الثلاثة، صرن أشبه بمشجعي الملاكمة، يوافقن، يعترضن، يمصمصن الشفاة، "يَهْرُشن" العقول...

قهقه عزمي بصوت عالٍ على كلام أخيه "آدم":

- ده رأيك يا أستاذ آدم؟! أنك تشبهوا بوحي نبي؟! البقر كمان بينزل بوحي نبي؟ حاجة تضحك.

طب كل الحاجات التانية، البقرة الخرسا، الأحلام الجنسية، ريحة الدم، معبد "خوخة اليهود"... مليون حاجة، بردو شايفها وحي نبي؟!.

سكت عزمي لحظة، ثم ضحك بشكل مختلق سريع، قال لأخيه:

- طول عمرك بترفض السحر يا آدم، بس مش معناه أنك تحارب الحقيقة اللي قدام عينيك...

قال آدم بنبرة حادة متوترة وصوت يكاد يكون صريخًا:

- أنت عايز توصل لإيه ياعزمي؟

- عايزك تقول الحقيقة يا آدم.

يضحك آدم بشدة، يقترب من أخيه "عزمي"... ينظر في عينه تمامًا، يخترقها:

- حقيقة ايه يا دكتور عزمي؟، أنت نفسك بقيت عارف أن دي مش الحقيقة، لو شفت رعشة عينك اللي أنا شايفها دلوقت

هتعرف إنك نفسك مش مصدق.

يبتعد آدم عن أخيه بضع خطوات ثم يكمل:

- بس عشان تبقى عارف، البقرة اللي خايف بيقول صاحبته هي نفسها كانت صاحبة "سلمى يحيى عوض" و"سلمى عبد الحي غريب"... "دارتي" هي "زئردة".

كانت "خرسا" عشان غالبًا اتولدت "طرشا" مبتسمعش، وده خلاها تقرّب أكتر من سلمى وسلمى، وهم يقَرَّبولها.

هي كانت موجودة في المدرسة هنا يوم قتل سلمى عبد الحي، وشمت ريحة دمها وهي بتموت.

يمكن بشكل عجيب نقلت لخايف حواسها اللي بتختلف بشكل جذري عن البشر...

البقر بيبقي عنده القدره على شم الروايح أكتر بكتير جدًا من البشر، يعني بتشم على بُعد أميال كتير، وأولها ريحة الدم، وده اللي اتنقل لخايف...

بَصَر البقرة اللي بيشوف كل اللي حواليه بشكل دائري اتنقل بردو لخايف، حتى قوتها اتنقلت له بشكل عجيب...

أنا شفت خايف وهو بيقاوم رجالة صلاح باشا، أنت مش ممكن تتخيل اللي حصل أو القوة اللي كانت في خايف...

ظهر في عين آدم حزن عميق، قال بهمس مسموع وهو يُسْقِط نفسه على أقرب كرسي:

- بس أنا كالعادة مقدرتش أعمل حاجة.

علا صوته فجأة كأنما استيقظ:

- حتى الأحلام الجنسية الأنثوية اللي كانت بتجيله، كانت بتنقل له غريزتها الأنثوية الفطرية جدًا اللي تشبه الغريزة الإنسانية، بتنقلهاله من غير قتل رجولة أو الكلام اللي بتقول عليه، بشكل غريب عرضته مشاعرها البسيطة جدًا وحواسها.

يضحك عزمي ضحكة صارخة سوداوية، ضحكة أشبه بشهقة، لا تنهرنه الممرضات اللائي صرن يستمتعن "بالعرض اللايف"، ونَسَين المرضى المُلْقَين داخل العناية المركزة.

قال عزمي بثقة:

- البقرة اللي بتقول عليها دي هي اللي جابته على معبد يهودي، وموسى حكيم كان هناك.

عند سماع كلمة موسى حكيم، تَسَللت الممرضات إلى داخل غرفة العناية المركزة، للاعتناء بالمرضى بالطبع، رد آدم:

- هي نقلت له ذاكرتها واللي فيها مئة مكان، شاف معاها كل الأماكن اللي مرت بيها في طريقها للمدرسة، وده عشان البقر ذاكرته مش ضعيفة... لو مش عارف ده يا دكتور "عزمي".

بس معبد "خوخة اليهود" هو المكان الوحيد اللي عرف خايف يوصله؛ لأنه شاف صوَرُه في التليفزيون بالصدفة.

ولو انت من بلدنا، يا عزمي، كنت عرفت أن موسى باشا لا مع اليهود ولا ضدهم ولا يفرقوا معاه، هو داخل مشروع تمويل إعادة

بناء معبد "خوخة اليهود" مع الحكومة، ودي سببها معروف، يا دكتور: عشان الآثار.

تشتد ضحكة عزمي، ثم تتوقف فجأة... ينظر لأخيه بإشفاق، يقترب منه آدم تمامًا، حتى يتلامس أنفاهما، يقول آدم:

- عايز تعرف ليه الموضوع حصل بالشكل الغريب ده؟

ودون أن ينتظر إجابة، اكمل:

- عشان كلنا ايدينا عليها دم يا دكتور، كلنا وانت أولنا... ومحدش كان ينفع تستنجد بيه في جريمة قتل إلا خايف، محدش عنده الرجولة إنه يكشف اللي حصل إلا هو.

يشير عزمي إلى أخيه "آدم" بسخرية، يقول بعصبية:

- مين دي اللي تستنجد؟!، انت اتجننت يا آدم؟! اتجننت؟

- أومال اليهود اللي باعتين بقرة تخطف خايف هو اللي مش جنون يا عزمي؟!!

لا يبدو أن عزمي سمع شيئًا من جملة آدم الأخيرة... يبتلع ريقه، ثم يقول لآدم بهدوء:

- بعد اللي حكيته من شوية، متقولش كلنا ايدينا عليها دم، ده آخر شغلك عند صلاح موسى "دلدول"... ايدي مش هتتمد في ايدك الغرقانة دم لحد الموت يا آدم.

قالها عزمي وهو ينظر لأخيه نظرة غريبة... غضب وشفقة وكره، يغلفهم جميعًا حب باطني، حب أب لابنه ... تركه وانصرف.

(٣٢)

﴿ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٧٩ ﴾

[البقرة: ١٧٩]

عندما فتح "خائف" عينيه، استقامت الحياة مرة أخرى في عين كامل.

- انت كويس يا حبيبي؟.

قالها كامل همسًا في أذن ابنه، تفاجأ الابن بأبيه، آخر مرة رآه فيها كان يركض خلفه في إمبابة، ويلهث بشكل مضحك، قال خائف بصوت واهن:

- أنا كويس.

احتضنه كامل حضنًا قويًا، بللت دموعه جسد خائف، بل بللت حياته هو نفسه، فحص الطبيب خائف، قال:

- ابنك هيبقى كويس، بكرة هنحاول نقوم نمشيه.

بعد يوم، ينظر خائف من الشباك إلى بناية مهدمة مائلة تذكره بالمعبد، قال له أبوه:

- تحب أقَوِّمك من عالسرير يا حبيبي؟

أومأ إليه خائف رأسه إيجابًا، اقترب منه الأب، قال له:

- نزل رجلك شوية.

يبدو على وجه خائف الألم والتركيز لحظات، يقول لأبيه:

- مش عارف.

تَسَمّر الأب في مكانه، انطلق عزمي إلى أحد الأطباء يستدعيه... فحصه الطبيب محاولًا أن يكون دقيقًا قدر علمه:

- للأسف في الغالب الخبطة أثرت كمان عالعمود الفقري

والحركة، ماقدمناش غير إننا نستني ونشوف هل ده هيستمر ولا ممكن يتحسن مع الوقت؟.

بدا على الطبيب الحزن الحقيقي وهو يقول ذلك، أما كامل وعزمي حافظ؛ فصارا مهدمين تمامًا مثل معبد "خوخة اليهود"... مثله تمامًا يحتاجان إلى إحياء أو إعادة بناء من موسى حكيم.

خرج خائف من المستشفى بعدها، يستقبل الشوارع والطرق لأول مرة منذ أيام، لكن يستقبلهم على عجلات الكرسي المتحرك، فلا تمس قدماه الأرض.

اتفق كامل مع عزمي حافظ أن يبيت هذه الليلة معه في قرية "ميت البقر"، دخلاها مع شروق يوم الجمعة، وأهل القرية نائمين إلى آخرهم، في أول قرية "ميت البقر" تظهر لافتة كبيرة مكتوب عليها "قرية أولاد الحكيم".

بعد ساعات... يتجه عزمي حافظ وأسرته ومعهم كامل وخائف إلى صلاة الجمعة... أبنية القرية من الطوب الأحمر بينها ممرات ضيقة، وحولهم أراضٍ طينية مزروعة و"بائرة".

- "اف" "اف".. ايه الريحة دي؟!

قالها خائف بخفة ظله المعتادة عندما مر بجانب مجموعة كبيرة من الحمير تمارس عادات الكائنات اليومية المُقْرِفة، فضحك من حوله، حتى كامل ابتسم وجهه برغم قلبه الذي يتمزق على خائف. ابتسم الجميع، إلا "عزمي حافظ" صاحب وجه جامد وعينين حمراوين واسعتين كأنهما صارتا لا يُغلقان أو "يرمشان".

أمامهم تمامًا مسجدٌ ليس كبيرًا، لكنه كبير بالنسبة إلى أحجام البيوت في القرية، له أربع مآذن عالية ترتفع في سماء القرية، تمت إعادة طلائه باللون الأبيض من موسى باشا حكيم، على باب المسجد لافتة مكتوب عليها بخط جميل...

"مسجد العزيز الحكيم".

المسجد شبه فارغ، لكن بمجرد أن يدخل الخطيب لصلاة الجمعة، يكون رجال القرية جميهم بالداخل، ومعهم أطفال القرية ذكورًا وإناثًا.

تدخل سلمى إلى المسجد مع أبيها، ينظر خائف إليها فيعرفها فورًا، يهز رأسه فرحًا، يقول لأبيه:

- وديني لسلمى يا بابا.

ينظر كامل فيجد نفس الطفلة التي كانت في مستشفى القاهرة معهم، الفتاة الناظرة إلى السقف باستمرار، يبتسم ثم يذهب بالكرسي تجاهها، ترى سلمى "خائف" فتتهلل عيناها فرحًا حقيقيًا وعيناها تتركز عليه تمامًا، بود تقول له:

- خايف، أنا خفت عليك.. انت كويس؟... وحلو؟

في مؤخرة المسجد يتحدثان، ينظر خائف إلى كرسيه ذي العجلات وجسده الذي لا يتحرك ثم يقول بصوت ضاحك

- أه يا سلمى، أنا كويس اوي.

يمط شفتيه بشكل لم تستطع سلمى معه منع نفسها من الضحك، نظرت له بابتسامة يغزوها حزن عميق:

- انت بقى عندك ملبوسة زيي؟.

يضحك خائف بصوت ضعيف رنان، ثم يقوم بتحريك رقبته بشكل "ميكانيكي" في جميع الاتجاهات، يقول:

- عندي ملبوسة تانية.

حقيقة لم يكن يفهم خائف "اللي عنده" لكنه من داخله أدرك أنها "ملبوسة"، فطالما أنها تربطه أكثر بسلمى، فلتكن ملبوسة إذن،... ما يمنع؟!، على بركة الله.

عندما ذهب الخطيب إلى المنبر لإلقاء خطبة الجمعة، خطا موسى حكيم داخل المسجد بهدوء وضعف، وراءه تمامًا ولداه بجلبابيهما السوداوين الفخمين... (صلاح موسى وصالح موسى).

كعادة موسى باشا حكيم، يخطو إلى الامام في ذلك المكان الفارغ خصيصي له أمام المنبر مباشرة، وبجواره ولداه على يمينه ويساره، يُحَرِك أصابعه على حبات مسبحته، لسانه يذكر الله بهمس خفيف.

خلف الخطيب تمامًا مكتوب بخط قرآني جميل:

﴿ وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾

لم يكد ينهي الخطيب صلاة الجمعة، حتى نظر صلاح موسى خلفه فلمح "خائف" على كرسيه، اقشعر قلبه، انحني على أبيه وبصوت خفيض جدًا قال:

- يالا نمشي يا باشا، ورانا شغل.

نظر له أبوه بعدم اهتمام فتلك الساعة التي تتلو صلاة الجمعة مخصصة للاستماع لطلبات أهل القرية، لا يُفَوِّتها موسى حكيم إلا عندما يكون مسافرًا أو نزيل أحد المستشفيات

في تلك اللحظة... يقف كامل في آخر المسجد بجانب الباب، احمرت عيناه إلى آخرها، ترتعش حدقته برغم تركيزها على الثلاثة - موسى حكيم وولديه-، لو نظرت إليه لقلت إنه أصيب بالجنون.

في وجوه الثلاثة (موسى حكيم وولديه) يتذكر كل شيء، ذلك الألم الرهيب في جسده، في روحه... يمسح بيده احمرار عينيه قبل أن يتحول إلى لزوجة دموع، يمسك أنفه المشوه. يمسها بأنامله ببطء كأنه قس يباركها، يتقدم نحوهم حتى صار يفصلهم عنه خطوات.

في ذلك الوجه الذي يكرهه ينظر... وجه موسى حكيم ذا الندبات السوداء.

- "ابنك مصابوش خدش زي ما الباشا وعدك بس انت المسئول قدامي".

هذه الجمله طالما طاردت كامل في نومه ويقظته، فكر مرات ومرات في إنهاء حياته، فقط ليتخلص من مطاردتها، لكن ما يدريه

أنها لن تطارده بعد مماته؟.

في تلك اللحظة قالها كامل... نعم، قالها بصوت صارخ عالٍ لأول مرة، قالها في وجه موسى باشا حكيم.

نظر له موسى حكيم بغضب، لم يفهم ما قيل لكنه غضب مِن ذلك الذي يعلى صوته في وجوده داخل المسجد.

استمتع كامل بنظرة الغضب في وجه موسى حكيم بشكل عجيب، بشكل شهواني، بشكل مَرَضي، فكررها مرة أخرى بنفس الصوت:

- "ابنك مصابوش خدش زي ما الباشا وعدك بس انت المسئول قدامي".

ود لو يستمر بتكرارها إلى آخر العُمر، ليغسل بها ماضيه وذاكرته، لم يستطع موسى حكيم منع نفسه من الصياح داخل المسجد:

- مين الكلب ده طلعوه بره مسجد ربنا؟!.

الحقيقة أن في تلك اللحظة تعطلت "كهرباء" مسجد ربنا؛ فتوقفت تكييفات الإنسان وانطفأت أنواره، ولم يتبق إلا شباكان صغيران لم يمنعا عرق ربنا من سباقاته على جلود الجميع، وسمحا فقط لسرب صغير من أشعة شمس ربنا فى الدخول.

تحرك خمسة رجال بجانب موسى حكيم في اتجاه كامل، لكن قبل ان يلتحموا معه، تقدم عزمي حافظ وثلاثة رجال ليمنعوهم عنه.

قال عزمي حافظ بنبرة ثابته عالية وجسد مفرود:

- خليه يقول اللي عنده يا موسى بيه.

حاول الرجال الإطاحة بكامل فلم يستطيعوا، ذلك اليوم كان أكثر ازدحاما من كل جمعة مرت على القرية طوال سنوات عمرها، يتساقط عَرَق الجميع على السجَّادة الحمراء ليزيدها احمرارا.

ينطلق صوت جَهْوري في لحظة يسلخ كل الأصوات عن ألسنتها:

- انا كامل اللي ضيعتني من خمسة وتلاتين سنة، ودخلت أبوبا السجن يا باشا... فاكرني؟

تحول المسجد في لحظة من ساحة عبادة إلى صمت مُجَسَّم، سكتت كل الاصوات ربما بسبب نبرة كامل، أو بسبب تشوقهم لباقي "الحِكّيوة"، دائمًا ما تثيرنا الحكايا العتيقة!.

شعر "موسى باشا حكيم" بنَفَسِه يضيق وحرارة الجو تمتص حرارة روحه، أحس بأنه لو أراد الوصول لباب المسجد الآن لسقط ميتًا قبل أن يصل، سكت لحظات ليتذكر، لا يتذكر ذلك الوجه أبدًا، لكنه يعلم جيدًا أن هذه هي الذكرى الخامسة والثلاثون لحبيبته، لثلث روحه الذي انفصل عنه.."آمال" ابنته... قال لابنه "صلاح موسى" منذ يومين:

- روحي خلقها ربنا متقسمة تلاتة، تِلْت ليا وتِلْت ليك ولصالح، وتِلْت مات مع آمال.

خسر موسى حكيم ثُلث روحه بسبب سائق متهور وولد أحمق، يتذكر جيدا تلك اللحظات، لكم يؤلمه أن السائق المتهور لم يُعاقب حتى الآن! ذلك الولد الشرير الأحمق "كامل" هو المسئول عن موت "آمال" ابنته الطيبة الهادئة، كان لابد أن يعاني مثلما يعاني هو حتى الآن... لَكم يفتقد ابنته!، هي أكثر من تشبهه من أبنائه! يقول "موسى حكيم" لكامل بتأثر بالغ وعين تستعد للفظ دمع السنين الطوال:

- انت قتلت آمال بنتي، مينفعش دم بنتي يروح هدر،

تعالت الصيحات مَن "صلاح موسى" و"صالح موسى" ومَن حولهما سَبَّاً في كامل، يحاولون الوصول إليه فيفشلون، صرخ كامل فجأة:

- انا ماقتلتش بنتك يا باشا، ولا أبويا اللي ضيعته قتلها

سكت "كامل" لحظة، لفظت عيناه أول دمعة لها في ذلك اليوم، تمالك جرأته بعد أن كادت تتفلت منه، وأتْبَع يقول بنبرة صارخة وصوت باكٍ:

- مرضيتش دم بنتك يروح هدر، طب ليه رضيت دم بنت الحاج عبد الحي غريب يروح هدر؟.

هنا تحول المسجد إلى "سيرك" صاخب مغروس في نار جهنم، عمائم مبلولة، أوجه غاطسة في العرق، صياح هنا وهناك، كلٌ يحاول التحرك من مكانه، لكن الكل يصطدم ببعضه، ويظلون جميعًا في أماكنهم متلاصقين، كأن بينهم قوى تجاذب مغناطيسية.

بينهم يقف الحاج عبد الحي غريب والد سلمى "القتيلة"، تلك الفتاة السمراء الجميلة، تخطَى الستين من عمره، وإذا كان مقدار "آمال" ثلث روح موسى حكيم، فإن سلمى عبد الحي كانت تبلغ كل روح أبيها -الحاج عبد الحي غريب-...

هو"جابها بعد غيبة"، بعد أن صار شيخًا، أو كما يَتَنَدَرُون عليه في القرية:

"جابها بعد خيبة".

بمجرد أن قال "كامل" آخر كلمة في جملته الأخيرة "هدر"، كان "أستاذ علام العبد" الذي يرتكن إلى حائط المسجد يفتح عينيه إلى آخرها، لا يصله أي هواء من قصر قامته فيكاد يختنق، يحاول توسيع طريقه بين الأجناب والكروش الموازية لرأسه للخروج هربًا من المسجد.

لم يكد "علام العبد" يُخَلِّص جسده من بضعة أجساد مشتبكة به... حتى وجد نفسه يصطدم بصدر عريض... رفع عينيه ليرى صاحب الصدر... وجده أمامه ينظر له في عينيه مباشرة، الحاج عبد الحي غريب والد سلمى "القتيلة".

بصوت عالٍ كأنه يلقي خطبة في مجلس النواب، يقول موسى حكيم:

- دم بنت الحاج عبد الحي غريب النيابة معرفتش تجيبه، وأنا من ساعتها بحاول أعرف المسئول عن دمها.

لأول مرة منذ سنوات يختلط صوت موسى حكيم برعشة لا تُخطأ، رعشة أشعرت الحاج عبد الحى غريب أن موسى حكيم يعرف قاتل ابنته، استفاق "الحاج عبد الحي غريب" على صوت "كامل" يعلو:

- يعني يا باشا لو عرفت المسئول عن دم سلمى عبد الحي هتحاسبه زي ما عودتنا تحاسب كل مسئول؟!.

الهواء في المسجد لا يكفي من به، ولولا معجزة من الله لتخلى بعضهم عن حصتهم في الهواء موتًا، من أجل نجاة الآخرين، في آخر المسجد يجلس خائف على كرسيه، يستمع بتركيز أكثر كثيرًا من تركيزه أثناء حصصه المدرسية عديمة القيمة له، يحاول تحريك رقبته بين أرداف الحاضرين وأقدامهم كي لا يفوته المشهد، بالنسبة له ما يحدث كان مشهدًا بحق، يتابع، يشاهد، يتأثر، يضحك، يسخر... منتظرًا النهاية، نهاية "فيلم مُشوّق"، أما سلمى بجانبه؛ فكانت تتعرف الحياة لأول مرة. تتعرف أن صديقتها سلمى السمراء الجميلة لم تذهب إلى مكان ما، بل ماتت... قتلت،

تُرَى أين يذهب المقتولون؟... تساءلت الطفلة.

قال موسى باشا حكيم بحماسة ناظرًا إلى الحاج عبد الحي غريب:

- اللي موت بنتك يا عبد الحي هنوصله ووقتها كلنا هناخد حق بنتك.

أغمض الأستاذ "علام العبد" عينيه وانحني بظهره ورقبته إلى الأسفل فازداد قِصرًا على قصره، مشهده بين الجميع منحنيًا قصيرًا كالأطفال، مغمضًا عينيه، جعل خائف يضحك بشدة.

قال "آدم حافظ" فجأة:

- أنا هقولكم مين اللي قتل سلمي عبد الحي.

يعود "السيرك" ليتحول مسجدًا من جديد، صمت خاشع رهيب، يصرخ بعدها "الحاج عبد الحي غريب" بألم وقسوة غريبين على سنه الكبيرة.

- محدش هيطلع من الجامع، اتكلم يا آدم، متخافش.

ترتجف شفتا آدم وتفوح منهما رائحة الخوف، يتراجع خطوة إلى الوراء كأنه يهرب...

- أنا اللي قتلت سلمى.

بصوت مختنق وحنجرة مبحوحة قالها آدم حافظ، تفلتت منه الدموع بعدها، يتنزل صمت قاتم مذاقه مرٌ على الجميع... يرددها آدم حافظ بهمس دون وعي ودون إتمامها...

- "أنا..أنا..قت..قتل..لت..سال..سال..مة".

ينظر علام العبد بعدم فهم إلى اللاشيء، يتساءل بهمس:

- "مين قتل مين؟ آدم حافظ! مستحيل!!قتلها ازاي؟ اومال أنا ابقي قتلت مين؟".

يضحك علام العبد بصوت عالٍ سمعه كل من بالمسجد، يكاد عقله ينتحر هربًا من التفكير.

يصرخ صلاح موسى في آدم:

- اخرس يا حيوان، مبقاش إلا انت يا دلدول تتكلم، امسكوا الحيوان ده وطلعوه.

قبل أن يقترب أحد منه، يكمل آدم حافظ:

- وعشان أنا دلدول يا باشا، أنا الوحيد اللي أقدر أحكي الحكاية (سكت لحظات فصار المسجد كالقبور ثم اكمل) الحكاية اللي بتقطع فيا من ساعتها.

ثم يتابع:

- أيوة أنا اللي قتلتها، ايدي اتغرقت بالدم من ست شهور.

عكس ما اتقال، سلمى عبد الحي راحت المدرسة يومها، في طابور الصبح، ضربها علام العبد ضرب موت، وقعت غرقانة في دمها، بعدين لقيت صلاح باشا بيجري بالبت، خدتها من ايده، قاللي: هننقلها عالمستشفى...

في مستشفي صالح باشا موسى قعدنا جنبها ساعتين بعدين لقيت صلاح باشا بيقوللي هنرجع، مفيش فايدة في البت.

لسه هركب العربيه لقيت سلمى في الكرسي القدماني بنفس الشكل... ميتة تمامًا، أو حسبتها ميتة، ركبت وخدتها على حجري، مش عارف أعمل ايه...

فجأة لقيت صلاح باشا بيقوللي: "نزل البنت من العربية"، مفهمتش... قلتله:"طب اقف".

هَدَّى العربية وقاللي: "ارمي البنت"، صرخ وقال:"افتح الباب وارمي البنت حالا".

ينهار صوت آدم، تكاد أحباله الصوتية تتمزق أو تغرق في نهر من دموعه الداخلية، صمت لحظة ثم قال بأحرف متقطعة:

- ف فتحت البا.الباب والعربية ماشية.. موتتها، مكانتش لسه ماتت... قتلتها.

تنفجر الأحرف من فُوَّهة شفتيه دون تحكم:

- بعد لحظة سمعت صوت عربية تانية بتعدي من فوقيها...

التقط أنفاسه وعدل جسده، صرخ بقوة كأنه صار شخصًا آخر...

- عربية ورانا تبع الباشا داست عليها.

بصلي الباشا وضحك، وقاللي: "موتها يا آدم!!" ...

مش أنا لوحدي اللي قتلتها، الباشا اللي قتلها قبلي... صلاح باشا اللي قتل بنتك يا عبد الحي، وموسى باشا حكيم كان عارف... خد حق بنتك لو تقدر يا عبد الحي يا غريب.

إن حاولت وصف ما حدث بعدها بدقة لصرت كاذبًا... تشابك أصوات وأجساد بل أرواح، العرق يخنق الجميع، وعُشر إشعاش شمس يدخل اليهم من الشبابيك الصغيرة، فلا يستطيع مقاومة

جيوش الظلمة الثقيلة...

تتردد كلمات من كل الاتجاهات "الظلم" "القرية" "اتقتلت" "الله" "كُفْر" "خايف" "تارك" "العبد" "الباشا" "موسى" "آدم"...

كلمات منثورة تحوم فوق رؤوس الجميع في دوامات، تحتاج صفحات لكتابتها، في ظلام مثل هذا، لم أستطع تبين تفاصيل إلا الأعين، أعين كثيرة صارت بلون الدماء... حمراء تمامًا. مبلولة وجاحظة يكاد يصيبها الجنون.

علام العبد صار يتحرك نحو الجموع بعين جاحظة كملبوس، والحاج عبد الحي غريب يلاطم الأجساد بجسده العجوز، آدم حافظ في عينيه غضب رهيب، عزمي حافظ ثابت تمامًا كصنم، يصرخ كامل بجنون شديد وعنفوان إلهي:

- خد حق سلمى عبد الحي يا موسى يا حكيم... اللي قتلها لازم يتحاسب.

يضيق نفس موسى حكيم حتى يصير أنفه أضيق من فُتحة إبرة، يفتح فمه إلى آخره، يتراجع خطوة إلى الوراء فيصطدم بشيء حاد، تنزلق قدمه على سجَّادة المسجد، يسقط على ركبتيه، على وجهه ألم شديد، لا ينظر له أحد ممن حوله.

يشعر بألم رهيب مفاجيء في جانبه، يضع يده عليه فيلامس بأصابعه مقبض سكين مغروس في لَحْمه، تسيل الدماء "الموسوية" من جانبه الأيمن لتختلط بـ "نبيذية" عباءته، وسجادة المسجد الحمراء.

يصرخ بهلع، يسقط على ظهره، صادمًا الأرض بخده الأيسر فتعطي ندباته السوداء وجهها للحياة، هناك سكين له مقبض أسود، ونصل صار أحمر مغروس في جانبه الأيمن، تنظر عيناه للأعلى وتتألم.

طالما تمنى أن ترفرف روحه بعد موته بأجنحة، فوق قرية "أولاد الحكيم".. للأبد!، بل إلى ما بعد الأبد.

فهل حدث؟

(٣٣)

﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾ ﴾

[البقرة: ٢٤٢]

كان أول من خرج من المسجد بعد مقتل موسى حكيم، هو كامل معه ابنه خائف، بجانبه سلمى معها أبوها، يقف بجانبهم آدم حافظ وأخوه الدكتور "عزمي حافظ" الذي يقف ذاهلًا عن كل من حوله بغرابة، كأنه صار شخصًا آخر:

في تلك اللحظة، يتساءل كل رجال القرية (إلا رجلًا واحدًا):

- يا ترى مين اللي غرز السكين في جنب موسى حكيم؟!!

في وادٍ آخر خائف وسلمى يتضاحكان، يلاحظ أبو سلمى أنها تحرك رقبتها، لأول مرة منذ شهور، تتساقط دمعاته الممزوجة بعرقه لتبلل شعرها "البني" الناعم، يحتضنها، يضحك الجميع.

يقول خائف بسذاجته "الخائفية":

- دلوقتي بقى عندك ملبوسة زيي بالظبط.

يقصد أنها صارت لا تحرك في جسدها إلا رقبتها مثله، يربت كامل على كتفها، يقول لابنه:

- مفيش حد ملبوس يا خايف، سلمى قريب هتبقي كويسة وترجع تجري زي الأول.

بشكل غامض يثق كامل بهذا تمامًا، لكنه ليس واثقا بنفس الدرجة إذا كان خائف"هيبقى كويس ويرجع يجري زي الأول".

قالت سلمى وهي تشير إلى الخاتم الفضي المعلق في رقبتها بسلسلة:

- انت حلو أوي يا خايف، خد مني الخاتم ده، البسه.

خلع أبوها الخاتم من رقبتها، أعطاه لكامل، خاتم فضي به فصوص زجاجية لامعة، نظر خائف للخاتم الأنثوي فتراجع برقبته، قالت سلمى بحدة ثم ضحكت بما يشبه التهديد:

- البسه.

وضع "كامل" الخاتم ذا الفصوص اللامعة في إصبع خائف... نفس الخاتم الذي كانت تلبسه سلمى عبد الحي السمراء الجميلة.

في طريقهم للخروج من القرية... أمام اللافتة الكبيرة المكتوب عليها قرية "أولاد الحكيم"، يركض آدم حافظ فيأتي بقطعة كبيرة من الخشب، يقفز بشكل بهلواني ثم يضرب اللافتة بها، يستمر بالضرب فيها حتى تسقط منكسرة، يضحك آدم بصوت عالٍ مجنون، يخطو فوقها، يقول بصوت صارخ ولهجة غريبة:

- قرية "مِيت البقر".

ينطلق كامل مع ابنه على كرسيه المتحرك في اتجاه موطنهما "إمبابة".

في مدينته... "مدينة القاهرة"، يتذكر "كامل فجأة... حادثة طريق الصعيد، يرتعش قلبه، يتذكر كلمات موسى حكيم "اللي غلط لازم يتحاسب".

بجانبه يرى قسم الشرطة، يركض إليه متقطع الأنفاس، يقول لأحد الظباط:

- أنا سواق النقل اللى كنت السبب في حادثة موتت أربعة على الطريق الصعيد من أسبوعين

نظر له الضابط الذي يضع قدمًا على الأخرى بملل، قال:

- تعالي بقي احكيلي ايه قصتك يا دَكَر؟.

في تلك الساحة الواسعة في قسم الشرطة، يرن صدى الصوت بشكل كبير وترتفع الاصوات، بعد أن يحكي كامل ما حدث بسببه... يقول له الضابط بسخرية:

- يا راجل! وحياة امك! طب ماتحكيلهم كده.

يتجمع بعض الضباط والموظفين للاستماع لما أمرهم به الضابط أن يسمعوه، لا يتفَوَه كامل بكلمة...

يُكْمِل الضابط ذو الوجه المربع والشارب الغليظ المصبوغ باللون الأسود:

- الاسطي جاي يسلم نفسه عشان داس فرامل فجأة والعربية عَوِّمت منه.

يضحك الجميع بصخب، حتى أن كامل نفسه أراد أن يضحك معهم، مرت ثانيتان وضحك بالفعل، كأنه يضحك على شخص آخر... فكر في سذاجته، يأتي إلى قسم الشرطة لتسليم نفسه لأنه "داس فرامل" فجأة...

صار كامل يضحك بشدة حتى إنه لا يتحكم في ضحكته... يقول له أحد الضباط أثناء الاقتراب من فم كامل:

- انت شارب حاجة ياض؟!

يَشِمه بسرعة، ثم يقول لمن حوله بنبرة خبير:

- لأ.. شكله نضيف.

"شلوت" ضعيف ضاحك يسقط على مؤخرة كامل مِن خلفه، بعدها يسمع كلمات نبرتها ضاحكة من أحدهم:

- امشي يا راجل من هنا، ومنشوفشش وشك تاني.

خرج كامل من قسم الشرطة، ذاهلًا ماطًا شفتيه الغليظتين، هز كتفيه عاليًا ثم ضحك حتى كاد يقع على الأرض، احتضن خائف الذي لم يرَ أمه بهية منذ أيام كثيرة... قال خائف:

- ماما وحشاني أوي يا بابا.

شعور غريب يحسه خائف نحو أمه لأول مرة، يشعر بأنه يريد أن يحتضنها فيذوب فيها، ربما هو اشتياق طفل لحالته الأولى قبل الولادة.

في مدينة المحلة... يخرج الدكتور"عزمي حافظ" من بيته،لا يرد سلام أحد ممن يقابلهم، حتى لافتة قريتهم المكسورة على الأرض لم يلحظها، يتجه إلى معبد "خوخة اليهود"، يقف أمام حوائطه المهدمة، رائحته العتيقة.

ينظر لبوابته بهدوء، يأخذ نفسًا عميقًا، قلبه صار هواءً جافًا بلا ماء الحياة، يمد يديه إلى جيبه، يخرج قلم حبر معدني، قلمًا أسود لامعًا له سن فضية حادة، ينظر إليه أثناء انعكاس أشعة الشمس عليه، تلمع سِنُّه جدًا، كم يبدو منظره جميلًا!، قلمه هو منذ أكثر من خمسة وعشرين عامًا، منذ دراسته للديانة اليهودية.

يرفع رأسه للأعلى، فتظهر الجروح المتناثرة على الجانب الأيمن لرقبته، يرفع القلم لأعلى أيضًا ويغمض عينيه...

ينظر إليه كثير من الواقفين في الشارع... منتظرين ما يفعله ذلك الرجل الذي يبدو أنه كان مهندمًا يومًا ما.

يفتح عينيه مرة أخرى، نظرة عجيبه يلقيها على حوائط المعبد من الداخل، يسحب نَفَسًا ولا يخرجه، يمسك القلم المعدني بقوة، يقربه من رقبته، في نفس مكان الجروح المتناثرة.

فجأة، يضغط على القلم بكامل قوته ناحية رقبته، فينغرس القلم كله فيها، تنفتح عيناه فجأة إلى آخرها... ناظرة إلى نقطة بعيدة... ترتعش حدقة عينيه بغرابة...

يتراجع خطوة إلى الوراء، وتتدافع الدماء بقوة من رقبته، دافعة القلم للخارج، وصانعة نافورة دموية... يترنح في كل الاتجاهات.

تنحني رجلاه حتى يسقط أخيرًا على سور المعبد... يستند بظهره إلى السور فاتحًا عينيه إلى آخرها، فمه أيضًا مفتوحًا، ناظرًا إلى العدم.

هنالك في حي "إمبابة"، يتجه كامل وابنه خائف إلى بهية، يشعر كامل باشتياق كبير إليها، ما أجمل بهية ببساطتها! مشاعرها التي تفيض من قلبها لتملأ جسدها العريض، يمد يده إلى جيبه فيلتقط سيفه البرونزي القديم، يرفعه إلى عينيه، ينظر إليه، بهدوء شديد يفتح ما بين أصابع يده ليسقط السيف خلالها، يبتسم كامل، يربت على كتف ابنه على كرسيه ذي العجلات.

يشعر خائف في تلك اللحظة بحب كبير تجاه أبيه وحب أكبر تجاه أمه، نزلت بهية متقافزة على السلم، برغم خوفها بعد حادثة "الحاجة يافتة"، ركضت نحو خائف على كرسيه المتحرك، احتضنته بأقصي ما تملك، بَكَت وبللت شعره ووجهه بدموعها...

يحتضنها خائف ضاحكًا برقبته المتحررة، لكن تدريجيًا... تتحول ضحكته إلى جمود، بل تقزز، يرتفع صدره للأعلى، ويتحشرج حلقه كأنه يريد أن يتقيأ، برقبته يدفع أمه بعيدًا، ويبعد عنها رأسه بعنف وقسوة، يقول لها بصوت متألم فحيحي:

- ابعدي عني... ريحتك دم يا بهية.

تمت